خناثة بنونة

الصمت الناطق

قصص



منشورات عيون

الصمت الناطق

* الصمت الناطق (قصص)
* خناثة بنونة
* الناشر: عيون المقالات : ص. ب. 67١٩، سيدي عثمان، الدار البيضاء ٥٩
* المطبعة: مطبعة الدار البيضاء
* الدار البيضاء، 1987
* رقم الايداع القانوني: 264/ 1987

خناثة بنونة

الصمت الناطق

قصص

منشورات عيون

صدر للكاتبة :

- **ليسقط الصمت** : قصص، دار الكتاب 1967 - الدار البيضاء .
- **النار والاختيار** : قصص ورواية ، مطبعة الرسالة ، الرباط . جائزة المغرب الثانية 71
- **الصوت والصورة** : قصص، دار النشر المغربية 1975 الدار البيضاء .
- **العاصفة** : مطبعة الرسالة 1979 الرباط .
- **الغد والغضب** : رواية - دار النشر المغربية ، 1981 ، الدار البيضاء .

مطبعة الدار البيضاء - الدار البيضاء

العزلة الموقوتة

تقف أمام الزجاج وتنادي بما يشبه الهمس:

ـ سعد؟

كـان وجهُ النهار قد برز، معتّماً طافحاً بظلال من ضباب قد يمطر ، وحين ظل في صمته أضافت:

ـ ألم تسافر، أترى أن الجو قد منعك؟!.

كان من الممكن أن يكون السؤال واضحاً، يملك حدوده وكفى. ولو أنها كانت هي، لكانت أسئلتها أكبر من حجمها، من طولهـا وبُعدهـا، ولكنها المعـارك الخاسرة. . .

بقي ممدَّداً بتواكل طارىء، عيناه مغروستـان في السقف، بينما تغيرت وضعية يديه من تحت رأسه إلى

جانبيه. أخيراً وقف، سار نحو المطبخ، يبحث عن الوقيد، وأشعل لفافة، امتصّها دون رغبة واضحة، وكان بسيره البطيء ذاك يتساءل.. يتطاول السؤال ليشمل أمسه وغده. ولم يكن ليفصح، فلقد استهلكا معاً ما بنياه، وهْماً أو واقعاً: التغيير، البناء الجديد، والانتماء للزمن المتحرك.

«كان قد قال لها: وما العمل؟»،وكانت هي قد خرجت مؤخراً من مرحلة الخطر، حيث سمح الطبيب لها بالاختلاط والحديث والتحرك. ولم يكن السؤال إلاّ فلتة لسان، فهو يدري أنه بذلك السؤال، إنما يجعل سيزيف العرب يخسر جولاته الإضافية، في الذات وفي الميدان، وأنه أيضاً يطلق عليها مدفعاً قريباً.

شهقت ولم تجب. فبالأمس، نزفت دمعاً ودماً، أدانت التفاصيل الصغيرة لليومي قبل المؤسسات والبنى والهياكل والأنظمة، أَجْرَتْ مسحاً للساحة العربية وعشقت الطوفان، قالت: إن العالم يلغينا، فيجب أن نحاوره بنفس لغته: الدمار. ثم حاولت تكوين خلية

للإرهاب الأسود؛ فالموت لا يلغيه غير الموت، ثم سقطت. . قال الطبيب دون أمل: قد تنجو. . وحتى في الغيبوبة كانت الطائرات تضرب في أعماقها الخيامَ واللاجئين والهوية والخطوة البكر والتاريخ الجريح.

وقف أمام الزجاج وظل يدخن، وكانت عيناه تتحركان بلا تركيز، فكثير من أشياء هذا العالم قد نُسفت، وهو يريد امتلاك أداة ما، لإعادة الحوار معها، وتذكّر: سعيد وجدها في المخدر، وعبد الكريم في الانتحار، ونجيب في العودة إلى الحزب، وعليٌ في البحث عن المطلق، وأنا؟. .

أطل على قدمه وهو يسحق بقايا سيجارته بتؤدة، ثم رَنَا نحوها وهي تنفض ملاءة الفراش لتعيد طيّها بحركة بطيئة. ظل يلاحقها ويتساءل: أهي هي؟!. وحين التقت عيناهما في نظرة، تذكرا معاً أن سؤالاً كبيراً بينهما لا زال معلقاً: «ألم تسافر بعد، في الزمان والمكان طبعاً؟».

وضعت الملاءة على جانب السرير وأخذت تعلق بعض الملابس، وحين انتهت من تعليق بعضها، عاودت

الجلوس على مقعد قريب وغرست نظرتها في الأسفل: إنه الزمن، زمننا العربي، يتباطأ، يثقل أو يموت. وظلَّت كذلك،ولم تنتبه إلاَّ على صوت اصطدام أوان بالمطبخ، لقد كان سعد يضع إبريق القهوة على النار. رفعت نظرة تالفة، ثم حطتها على الجدار المقابل، وبعد مدة غادرت جلستها إلى الجانب الأيمن من الغرفة، وأزاحت الستار عن النافذة المطلّة على الأسطح المجاورة. ظلَّت نظرتها تسرح خلف الزجاج في البعيد، بينما كان سعد يمد نحوها فنجان القهوة.أمسكت به متمتمة، في حين رشف رشفة وهو قريب منها، ثم غادر إلى المقعد نفسه وجلس.

مرَّت مدة والرشفات الحزينة تتبادل الشكوى والأنين والصمت الحزين والأسئلة الموقوفة. وكان الجرح عبر أنينها ينكأ الأبجدية الأولى للوجود والعدم.

أخذت الأسطح تتلاشى، وأخذت الرشفات تتباعد، فضاع ذلك التناغم بين رشفتيهما، كما يضيع أي تناغم بين السؤال والجواب إلى حد الآن..

سارت قليلاً ووضعت الفنجان على كتاب مُغبرّ في جانب المكتب. أخذ ينظر إليها بين التمعن والاستغراب في عدمه، وأخيراً نفض رأسه في حضنه بعد أن رمى آخر جرعة في حلقه، ثم وضع يده بفنجانها على ركبته اليمنى. أزاحت برجلها شبشبه الذي لم يلبسه وغادرت الغرفة. سُمع صوت باب الحمام يُفتح ويغلق، ثم بعد حين،هسهسة ماء المضخة ينزل بتؤدة ثم بسرعة. وقف وتحرك، وعند باب الغرفة وقف، ثم استدار وركز عينيه على باب الحمام، كان يدرك معنى حركتها وكان يتعذب. من قبل،جهرا معاً بالحنين والجوى والعذابات الكبرى، وحين أحبا بعضهما فلأجل أن يحبا العالم، أن يبنياه مع الآخرين بهندسة مغايرة، تعيد توزيع اللقم والابتسام فيه بالتساوي، ولذلك عرفا السجون بعد الأعمال السرية التي تقوّض لتبنى، لكن..

ظلّ صوت الماء يأتي« مالها؟. عادة لا تتأخر كثيراً في الاستحمام» ولأنها عذابَه أو معناه، فقد كان يخاف عليها، يخاف جرأتها في الإتيان بعمل مجنون. سار

بسرعة، وفتح باب الحمام وأطل. كان رأسها مسبلاً إلى الخلف والماء يسيل عليه وهي مغمضة العينين، أحست بفعله ولم تجب، فأدرك أنها تطفىء اشتعال الرأس الذي لم يخمد بعد.

ومن بعد، حين أطلت من باب الحمام خارجة، ورأسها ملفوف في شرشف أبيض، قدم لها ابتساماً، أخذته وتمددت على السرير قليلاً، فسألها:

ـ أتريدين شيئاً؟.

تمتمت شاكرة. فأعاد وضع المخدة الجانبية خلفها، وسار ببطء نحو النافذة نفسها.

بلغه ضجيج الشارع فتذكر انتماءه السابق إليه، وتساءل: أتراه في لا جدواه ذاتها يسير؟ ثم استدار على مهل وغرس نظرته في رفوف الكتب التي تغطي أغلب جدران الغرفة وتألم: أيهما خدعني، الشارع أو هاته أم كل شيء، بدءاً من علاقتنا مع بعض، مع الأحزاب ومع الأنظمة ومع الأفكار، ومع الأيديولوجيات المهزومة؟. ثم زفر. فتركت زفرته بللاً خفيفاً على الزجاج. ولأنه لم يكن

يريد أن تبلغها منه شرارة إضافية، فقد استدار نحو السرير، فوجدها مغمضة العينين أيضاً «أتراها تمتنع أغلب الوقت عن الرؤ ية؟» لكن كيف تستطيع أن تمنع الرؤ ية الداخلية عن التبلور والوضوح، ثم تمتم بأسى: وأين المفر؟.

وبغتة زعق بوق الحافلة مرتين، حتى جعله يسترد وقفته والمكان الموقت واللحظات الحبيسة: الوطن.. الجُحر الذي تتقلّص أطرافه محيطاً وخليجاً ليصبح زنزانة محمولة في الداخل. سار نحو الكرسي نفسه وجلس، فَأَزَّ المقعد أزيزاً متقطعاً هزَّت رأسها على أثره، ونظرت إليه، وهي ترد له بعضاً من بسمته.

«... الجو منعك...» جو الغرفة أو الوطن أو الامة أو المؤسسات أو الافكار المنتظرة أو الاقتناع أو الادوات... اي انتحار بطيء وخامل هذا؟!...

أزاحت الشرشف عن رأسها، وسرَّحت شعرها بأصابع يدها اليمنى وهي تتكىء على اليد اليسرى، فبقي شعرها، كفكرها، غير مرتب.

وتابع يفكر: ولو سافرتُ. . نلتقي نحن، بعض أفراد الخلية. . نقول، بل ماذا نقول؟! فالأرض تبتلع الأقدام قبل السير الخاطىء عليها،ونحن نتشتت عبر الجهات المرئية واللامرئية بحثاً عن خطإٍ إنساني غير مرتكب، لنسجله في التاريخ اللقيط، ثم نُولِمُ ولائم الدمع والحزن الأرعن لضياع يوم البعث الموهوم. .

تمطت وهي تقف عند جانب السرير، فتسلّقت نظرته جسدها الرشيق حتى التقت نظرته بيديها اللتين أُسْبلتا. كان فرحه بها فرحاً أرعن، فهي الخصب الفطري الذي يتأبى على الصغائر وينتمي لدنيا الجموع. . ولكنها الآن، تغالب موت الجموع: في شرايينها وفكرها، وتستأسد من أجل نسمة حياة جديدة، ولذلك تسأله من الصباح لماذا لم يسافر؟ أكيد أنها غير مقتنعة بالسفر هذا، ولكنه على الأقل خطوة نحو الجديد. . جديد من نوع آخر، يمكن أن يفتح شقاً في الجدار الأصم بين الإنسان ومصيره. .

ولأن الاكتساح في الميدان والشوارع والبيوت

والنفوس والعقول، ولأن الخيوط تشابكت ثم تمزقت. . ولأن نوحاً لم يصنع سفينة بعد، ليحمل البذرة المرتقبة للخلق الجديد. . ولأن اللغة ارتطمت على سفح الهزيمة العاتي، فإنها لم تُعِد السؤال عليه: لماذا لم يسافر. . في الذات وفي الوطن؟. . .

كان يعرف صمتها ودمعها، كما يعرف نقاشها الحاد في الجلسات السرية وهي تدافع عن الاختيار المتطرف. فالمرونة السياسية التي كانت القيادة الحزبية تنادي بها، ليست في رأيها سوى بديل لعملة مدفوعة لتلك القيادة من طرف السلطة، من أجل تطويع القواعد الحزبية لما تراهنت عليه القيادة والسلطة عند الجلوس على مائدة مفاوضات الأرباح والأقساط. .

وكان ذلك في نظرها، بداية لمسلسل من التنازلات التي هيأت لكثير من الوشايات والقمع والتمييع وتشتت القوى، سواء على مستوى الأوطان أو الأمة، وذلك ضمن تحالفات الامبريالية.

لذلك كانت لاَزَمَتُها التي لا تفارقها في كل نقاش أو

تدخل: السجون مفاتيح الشعوب، وكلنا داخلَه رفضاً لهزيمة الهزائم: هزيمة جنس بأكمله.

وفاجأه صوتها وهي تنادي أيضاً:

ـ سعد؟

فَانْبَغَتَ، وتوجه نحوها، فوجدها تطلّ من باب المطبخ:

ـ أتأكل شيئاً؟.

فبحث عن لسانه وأجاب:

ـ نعم، لو سمحت.

ولأنه كثيراً ما أكل من يديها وجموحها وثوقها الأرعن للتغيير، فإنه كان مسؤولاً أمامها: الأنثى والوطن.. فعليه أن يفعل شيئاً.. أن ينقذ ما تبقى.. وأن يطرق أبواباً ويكسر صمتاً ويحرر حركة ويسمع أصواتاً.. لذلك حين وقفت عند باب المطبخ وانتبه لها وهي مستغرقة في التهيىء تصور انكبابها واستغراقها المثالي فيما تصنعه، فأحس بأنه يخونها لو توقف، لذلك وضع يده على سترته المعلقة وأخذها ثم خرج..

الصمت الناطق

الخلية :

قال المعتصم وهو يودعه :

ـ سنلتقي الليلة.

ولم يترك له فرصة الرد، كان كأنه به أعلم، فهل تراه يريد أن يشد قيده إلى جمع لم يعد يتجانس معه، فما تراه سيقول؟ لقد قال (لا)، و (لا) لكل التبريرات السطحية في الدفاع عن انهزامهم، همْ الممثلون، أبناء طبقتهم، ولقد أخلصوا لها، فارتعبت أوصالهم وقرروا الانحناء، إذ ماذا ينقصهم حتى يناضلوا من أجله: كل شيء لهم: الليالي، والتُخمة، والصفقات المربحة.

قرأ المعتصم وجهه قبل أن يترك يده:

ـ أنت تعرف رأيي سلفاً، فحضور «لا» باستمرار، أفضل من الانسحاب بها. كان يتكلم، يدافع عن استمرار الحزب كحزب بكل شرائحه، لا يريد لجناح أن ينفلت منه، بل من رأيه أنْ تواصل فضح هزائمهم بصحة مواقفك.

ترك كل منهما يد الآخر بفهم وسارا..

●

ـ آلو، السيد رئيس قسم الموظفين من فضلك؟

ورد الصوت النسائي المهذب من طرف الخط الآخر:

ـ ليس موجوداً، يمكنك الاتصال بعد حوالى نصف ساعة لو سمحت.

وضع السماعة وفكّر:

ماذا أقول لهم؟ أي شيء آخر يمكن كعذر، على أي سأطلب من الناظر أن يتحدث معهم ريثما يرحل النهار في بعضه أكثر. وكانت الساحة كعهدها، مستعدة للإقدام والإحجام، تنبت في حوافيها أزهار عادية وخضرة قليلة، بينما الأشجار هنالك وهنا، بعضها مورقة بينما الأخرى تشكو العطش.

وبعد أن فتح أذنيه قليلاً، عاد وأدار المفتاح في الدولاب، ثم أخرج ملفاً. كان الملف يحمل قضايا صغيرة تخص هاته المؤسسة كما تخص غيرها من المؤسسات التعليمية، بينما سطح الملف لا يوحي بأهمية ما، إنما وكبقية ما يوجد، فأين الأهمية؟.

انفتح باب المكتب بعد دق خفيف عليه، كانت هي، ذات الوجه المصر على الانتصار، ولأنها تملك أن تبتسم، بل تعرف كيف ومتى، فهي قد حمّلته تعباً، إنما وكالعهد، فهو موقن بأنه شخص آخر، غير من تريد، دون أن تنتظر منه أن يكون سلطة وكفى، ليوظّف تلك السلطة كبقية الآخرين، في كسب منفعة أو فرح.

ولكنها بالمقابل، المرأة التي تعودت أن تفتح الثغرات في الحصون، وأن تجعل رأس السلطة في أيّة مؤسسة وُجدت بها، تحت إمرتها، لترضي ذلك القهر الداخلي الذي ترعرع في ذاتها من حي الصفيح الذي كانت تسكنه، صبية جميلة مع أسرتها. وفكر:

ولكنني يا امرأة، لست بالنسبة لكِ مدخلاً أو مخرجاً.

فإنسان لم يفلح بعد في التجانس مع قضيته الأساسية كيف يتجانس معك؟ والبحث عن الأ لـويـة في هذا الميـدان ليس من اختصاصي. ولولا أنك مقتدرة لكان لي مغك شأن آخر.

•

هــي..

نبض الذات ونبض الوطن. فليس فيَّ ما هو أهل للحياة إلّا أن أكون لها، فيكون العذاب. وأسأل الزمن الخاص: أينك من كل هذا؟. لكن اللوعة مدمرة بها كالموت وكالمخاض، فأيهما يسكنني بها: موت أو حياة.. فلسطين التفاصيل وفلسطين القضية.. وطن القوم ووطن الأحبة..

•

وضعت السكرتيرة أمامه المراسلة على المكتب من أجل التوقيع وانتظرت، وكان ذلك دأبها حينما تريد أن تبني أعمدة لجسر. ولكنه أشار بيـده وفمه شـاكراً، فانسحبت.

أزاح المراسلة قليلاً، وفتح الملف:

المراسلة الأولى: بتاريخ ـ8/9/. 198 تحت رقم: 19780.

المراسلة الثانية: بتاريخ ـ17/9/. 198 تحت رقم: 19796.

المراسلة الثالثة: بتاريخ ـ2/10/. 198 تحت رقم: 19814.

المراسلة الرابعة: بتاريخ 12/10/. 198 تحت رقم: 19825.

سجل ذلك وانتظر. وحينما أمسك المراسلة الصباحية لمراجعتها قبل التوقيع، انفتح الباب من جديد وأطل الناظر، كان بنظارته السميكة وسحنته الوقورة يذكرك بسلطة تتشبث بالإطار، ولأنه لا يملك لغة غير لغة الإدارة، فقد قال:

ـ صباح الخير السيد المدير.

فرد عليه:

صباح الخيرات. ثم أضاف: تفضل.

وقبل أن ينطق، كان المدير قد قرأ وجهه، فهو وجه يعطيك النتائج حتى قبل أن تستعمل الوسائل، لذلك كان المدير هو من تكلم:

ـ على أي حال، سوف أكلمهم بدوري هذا اليوم أيضاً، فالمرجو منك استدعاؤهم لباب الإدارة، فأنا خارج إليهم حالا.

فأتى الناظر بحركة عصبية قبل أن يقف وهو يقول:

ـ وماذا يمكن أن تقول لهم؟

كان ذلك في غير محله، لكن الإدارة بكل ملابساتها وصدماتها وقهر الممارسة فيها، قد جعلته مرناً، تلك المرونة المتعبة، لذلك كان ما يهمه، هو أن يخاطب الأساسي ويتعامل معه، فأجابه بمودة:

ـ فحسب، أن أحدثهم على أمل توقّع الحل المطلوب.

●

المذيع:

.. قال: عاد السيد الوزير اليوم من المؤتمر الذي

انعقــد بأبي ظبي، حيث تدارس الســادة وزراء التعليم في الـوطن العـربي، مشاكل التعليم وطرق التخبط فيها، حتى تصبـح ككـل القطـاعـات الأخـرى، اليأس المحتمل، لهذا نرجو من سيادته التفضل بالحديث للمستمعين حول ما نجح فيه السادة الوزراء وما لم ينجحوا:

السيد الوزير لو سمحتم؟...

●

وفي تلك الفتـرة بين الحديث والحـديث، كانت المراسلة المنتظرة قد انتهت، وكان يفكر بأسى: ترى هل سأكذب عليهم؟ لا، هل سأمنيهم؟ لا، بل سأقول ما يلزم أن يقال.

وخرج..

ولأن جديته المعروف بها حيناً، والمقنعة حيناً آخر، كانت أمامه، فإنهم كانوا يثقـون به، يتعـاملون معه بالخصوص دون حقد مسبق، اتجاه كل من هو إداري أو رئيس أو سيد، لذلك انفرجت أساريرهم وهم يلمحونه، وكان ذلك قيداً إضافياً، فهذه الصلة الخفية كيف يخلص

لها ويتعامل معها؟. حرك يديه مع بعضهما. وكان أذكياؤهم قد فهموا معنى الحركة: ذلك الارتباك الخفي الذي لم يلمسوه من قبل. وتكلم:

- لا جديد، وأنا آسف إذ أقول هذا، ولكنه الواقع، ولأنني لم أتوفق بعد في رفعه، فأرجو أن ينيب كل فصل واحداً ليمثله عندي بالمكتب ليسمع ويعرف ويبلغكم. لقد كتبت وكتبت على الطريقة الإدارية، واتصلت هاتفياً وذهبت إلى الوزارة وقدمت لائحة بالاحتياجات، كل هذا أبلغتكم به سابقاً، لكن ما حصلت عليه هو تلك الأستاذة البلغارية التي رفضت أن تدرّس أقسام البكالوريا. وحين أعلمتهم بالأمر، طلبوا مني أن أجعلها تكتب اعترافاً بذلك، فرفضتْ، حينذاك أحلتها عليهم، فلم يتخذوا ضدها أي إجراء، خصوصاً وأنها أستاذة للمادة في السلك الثاني.

صاح أحدهم:

- كل هذا نعرفه، وهل سنظل دون أساتذة ونحن أقسام البكالوريا، مع العلم أن الدورة الأولى قد أشرفت

على الانتهاء، ومصيرنا هو الشارع في آخر السنة كما تعلم سيادتك.

إنه يتكلم. فوعيه بوضعه يجعله يحلله. وهؤلاء لا حق لهم على هذا الوطن إلاَّ أن يخلقهم. ونحن في سُلّم التراتب الإداري مجرد لعبة. لهذا أيده:

ـ أنا أوافقك، إن هذا حقكم، ولو كان لي ما أفعله لفعلته.

سارت همهمة، ثم بدأت ترتفع. وكان الجو يحمل أثقاله. والصوت العادي من يسمعه؟! وتلك المساحة الضيقة بين الحق والواجب هي الفاصلة. والوزارة حينما تفتح مؤسسة فإن عليها أن تحسب حساب كل ما يلزمها. وهذا التماطل، بل التلاعب أليس هو أيضاً الشرارة لإشعال الفتيل المطلوب؟.

●

يسر المؤتمرين بالمدينة الزاهرة أن يرفعوا، خالص الشكر وأسمى الامتنان، على حسن الضيافة التي أصبح المغاربة معروفين بها دوليا، من حيث تجويع ذويهم لشراء بطون

خصـومهم، راجـين عقد هذه المؤتمرات الدولية كل فصل، فقـد أصبحنـا مشغـوفـين بمـوائـدكم العـامرة أبقاكم الله لنا ولأمثالنا طلبا واستجابة.

●

وقبل أن يضيف المدير شيئاً، رفع رأسه إلى السماء، فرآها منذرة، ثم قال:

ـ أين الممثل لكل فصل؟

كانوا تسعة. وكان الحوار المستحيل. فلو كان منهم لكان له شأن آخر، لكن هل سيقول لهم ما يدور في رأسه!.

رفع السماعة من جديد وحرك الرقم وانتظر. وكانت عيونهم مسكونة بالشك والترقب، ولكنه كان فيها وعداً ووعيداً، أملاً وانتظاراً، غضباً فتياً وطلباً.

ـ هل حضر السيد رئيس قسم الموظفين؟

ورد عليه من وراء أسلاك الهاتف. صوته كخلقه، طيب ومتفاهم، لكن السلطة تنقصه، لذلك بادره:

ـ أعرف أن المشكل مشكل الاحتياج الذي لا زال.

- لذلك أسألك عن الجديد مع الوزارة، فالطلبة ها هم معي، وليس للكلام بعد أيَّة نتيجة، لذلك فهل هناك من أساتذة أم لا؟

- يؤسفني أن أخبرك أننا رفعنا عدة برقيات في الموضوع إلى الوزارة، بالإضافة إلى سفري الأسبوعي إليها، وباستمرار يعطوننا وعوداً لا تتحقق.

- وما العمل، لقد راسلتهم عن طريقكم في الموضوع على الطريقة الإدارية عدة مرات كما تعلم، وذلك بتاريخ...

المراسلة الأولى: بتاريخ 8/9/198 تحت رقم: 19780.

المراسلة الثانية: بتاريخ 17/9/198 تحت رقم: 19796.

المراسلة الثالثة: بتاريخ 2/10/198 تحت رقم: 19814.

المراسلة الرابعة: بتاريخ 12/10/198 تحت رقم: 19825.

لذا، فإما أن يجهزوا المؤسسات أو. . ، كان غضبه بالمرصاد، ولكنه كان يؤجله، فلعلَّ حلاً يقع.

ـ أعرف أعرف، ولكن ما العمل، ولسوف نرفع لهم برقية إضافية مستعجلة هذا الصباح في الموضوع.

وضع السماعة ووضع عينيه على حافة المكتب. كان حياء إضافي يسكنهما، وبالمقابل كان يحاول أن يسكت عقله، وأن ينيم ذلك الآخر في داخله، مؤقتاً. وحين أدركوا لغة الصمت، فتحوا باب المكتب وانصرفوا.

السلْم. هكـذا فَكّروهُمْ ينسحبـون. لكنـه السلم الراعد. ولأن المدينة في موسم احتفالي، حيث فتحت أبوابها لوفود ووفود، تقول بذلك للآخرين إنها بخير. لا يخصها شيء سوى كل شيء، من أصغر صغيرة حتى أكبر كبيرة، لذلك أخذ الاثنان فيه يتصارعـان، هذا الإداري الذي يجهد لأن يبقيه أطول وقت، والآخر، ريثما. .

كانت الشمس الآن مركزة، فالطقس صلب كالواقع، لهذا لم يسمع الجرس وهو يعلن نهاية حصة الصباح.

فاستغلت فتيحة هذا السهو الغير العادي وأطلّت. الوجه الصبوح الصامد. كانت إطلالة معبرة فانتبه، إنها تريد أن تقول شيئاً. ولأنه كان في الغضب المكبوت، فقد ركز فيها نظرة مستفهمة فأجابت:

- هل أنتظر، أم تتفضل بتوصيلي إلى الحافلة، فالجرس منذ مدة... كان قد عاد، فأدرك المكتب ومعنى السؤال وذلك العناد اللطيف. ولكنه شكر واعتذر. وحين خرج، كانت المدينة تستقيم فيه وهو يستقيم فيها، وحين ركّز عينيه أكثر رآها، مضاءة في عز الزوال، شرائط المصابيح الضوئية المنارة وهي تتحاور مع أشعة الشمس المفتوحة بسخاء دون موسم. وفكر:

الشخص الإداري لولب دائر على الساعة، زمن الإدارة المركزية بالخصوص. وقت الأكل وقت النوم وقت الذهاب ووقت الإياب، وكل ارتباك صغير يصيب أحدها يجعل كل شيء يتداخل في بعضه أو يتساقط. ولأن اليومي هو التاريخي، فإن الموظف أصبح دون تاريخ. لكنه توقف: كان الدركي يعطي أمراً: ممنوع الذهاب من

هنا. وحين استفهم عن لماذا؟ ركز الدركي فيه نظرة متآمرة فتراجع: لقد نسي ان مدينة فاس تعرف عرسا خارجياً، وأن عليه أن يفرح كالآخرين عند الضرورة وأن يطيع، خصوصاً حينما تريد المدينة منه ذلك. فعرج وتابع.. قطع شارع علال الفاسي. ثم استدار نحو مدخل جانبي ليصل إلى شارع السلاوي، ومنه يعود إلى خطه الموصل، لكن عند مدخله سمع صفارة تنبيه، كان شرطي آخر يوجه: خذ الطريق الآخر • وقبل أن يرمي بصره على ما يمكن أن يراه، لاحظ: لكن ذلك الطريق لا يمكن أن يوصلني.

كان الشرطي قد مدَّ عصاه الغليظة في وجه سيارة أخرى وأوقفها، وعاد ليجيبَ: هذا لا يهمني، المهم أن تذهب من هنا وتترك الطريق، فأنا لست فارغاً للحديث الطويل.

نظر كل منهما في عيني الآخر. وكان لكل منهما منطلقه وهدفه، إنما..

•

أخبار:

تمَّت يوم أمس، وبالحمد كله، المناورات التي قامت بها القوات الأمريكية الإسرائيلية المصرية في قلب القاهرة وفي وعيها الغافل، للتدخل السريع في المنطقة، وذلك للحفاظ على المكتسبات الصهيونية الأمريكية في المنطقة، ثم لتتمة تهويد الإنسان والهواء والماء والحلم والحركة..

•

عصر الأوامر وعصر الطاعة معاً؟ وهل لسنا معاً، هو وأنا، سوى وجهين لعملة واحدة، للخذلان والشظف والزمن الإداري والامتثال البليد، بينما الآخرون، السادة والضيوف، مَن مِن أجلهم هو يعطي الأوامر، وأنا أطيع الأوامر، فيتولد لكل منا غضب معين، لكنه بالنسبة له ولنا، لكلينا، **مؤقت.**

قطع مسافة من شارع السلاوي، ثم استدار يميناً ونزل نحو فاس الجديد. لا ضوء هنا، فحسب، أولئك يستهلكونه وهؤلاء يؤدّون ثمنه. والبقية؟.

الغذاء وجبة أم تكملة؟ وكان الغذاء الآخر في الشط البعيد، ومن أجله امتلأت السجون ولا زالت تنادي. وكانت زوجته تغرس استفهامها فيه:

ـ أنت لست كما يجب منذ شهور، فلكأن الأحداث تقع عليك وحدك. حاول أن يقنعها ويشرح، ولكنها بطبعها تقطع المراحل على مهل، لهذا أبدل الحديث إلى ابنهما محمود. وبعد الانتهاء من الغذاء فكر أن يقصد ولو عبوراً بيت صديقه المعتصم، ولكنه كان فوق الوعي تحت الوعي يعاني.

قبَّلها وخرج. الوقت الإداري.. لم يبدع المسؤ ولون مهزلة أكبر من الزمن الإداري: ليس لهم، بل لغيرهم. وكان شيء ما فيه يكاد يتفجر، خارج الموضوعية بل في قلبها يناديه. إنما هم: الطلبة،وهي: فلسطين، يبقون خارج الزمن الفارغ: جرحاً، حضوراً، ومطالبة...

●

الشارع..

يكاد يتفجر، يشكو جوعاً وبطالة، يشحذ وعيه ويستعد، يؤدّي الثمن ويطالب، بينما تتعرج دروبه

مستطيلة في الأزقّة والنفوس والهمم وفي المجاهل والخفايا، يستفهم ويعي فيتقوى حقده، فمن قبل، كان يخاف الشرطة والدرك والكبار والصغار والسرقات والنصيب، ولكنه في الأخير، انتهى به الأمر ألّا يخاف أحداً.

•

وعند باب المؤسسة ، تذكر ذلك الشيء الذي لم يعد يتذكره، غير أن صوتاً بادره:

- لماذا لم تبدل الراية الوطنية؟!

هكذا زجره ممثل السلطة، لأن في ذلك إهمالاً لعرس المدينة وهي تزف إلى العالم في زواج غير شرعي.

حيّا الباعة المتجولين وحارس باب الثانوية، ثم كشر: إنه هنا، عين الشرطة ومخبرها. تقدم الآخر منه ومد يده. كانت بين اليدين أزمان من الاغتصاب والقهر والسلطة الفاجرة، لذلك سار نحو المكتب مباشرة دون أن يرمي بصره جهتهم: الطلبة، فقد كانوا مجتمعين في تأهب. وهو يعرف أن نظرة منه قد ترجىء الاشتعال، ولكنه خبأها بين الرفوف والملفات وانتظار فتيحة، وترك المخبر، بل

أنفه المستطيل وجهاً لوجه معهم، ومع ما يمكن أن يأتي . . .

دق الحارس الجرس الثاني للدخول إلى الأقسام، وكان يسمعه. إنه انتظار وكفى. وكان صباه يناديه، بينما استعداده ذو قابلية ليجيب أو ليرتكب فعلاً خارقاً: ولا تتعجبوا، فمن قال منكم بانتصار العقل دائماً فعليه بهذا العصر؟!.

ثم قام وخرج. ترك نظرة فتيحة معلقة وقطع الباب الأول والثاني، لم يستدر جهتهم، فعلموا أنه قد ترك لهم حرية المبادرة. تزحزح المخبر نحوه واستفهم باستنكار:

ـ أتراهم لن يلتحقوا بأقسامهم؟!

كان سيجيبه: قلها لهم أنت، ولكنه غير:

ـ ومع من يلتحقون؟!

أجابه بذلك بينما كان يُحيّي أحد الأساتذة. غير أن المخبر عاجله:

ـ ولكن هذا يعتبر مساساً بالأمن العام.

أبطل آنذاك أي تعبير في وجهه، واستهزأ بلسانه فحسب:

ـ أهكذا ترى؟!

ولكن المخبر كان يريد صيداً، لذلك أضاف:

ـ وماذا ترى أنت؟

لو فتح فمه لمسخه، ولكن فتح فم واحد أو مجموعة أفواه محدودة وبشكل غير منظم، يعتبر استشهاداً بالمجان، لهذا أزاح بصره نحو الظهيرة الثقيلة وهو يخاطبه بالصمت: لن نلتقي أبداً، فنحن توأمان في التباين، ثم انسحب.

وما كاد يرفع السماعة ليجيب على مكالمة ما، حتى تكلموا، بل صرخوا، أولئك الذين يتهدد زمنهم بأن يصبح أزمان جرائم وفراغ: وأعاد السماعة ثم تشرّب الصوت، الهدير، الغضب البكر، والاشتعال المتأجج. ثم حاول أن يفكر: ترى أيَّة تطورات قد يعرفها الحدث، ولكنه أبطله: مهما تكن النتائج، فهي أرحب من هذا الانتظار اليائس على كل مستوى.

•

الشرق الأوسط:

هل اللغة قيمة مجردة أم قوة فاعلة؟؟. أما هو، فقد كان رحِماً: بؤرة وثورة. هناك من قال: هي، الثورة، يدبرها الدهاة، وينجزها الشجعان، ويربحها الجبناء. لكن واقعه وواقعنا يقول: لقد بـاعها السفلة، فمن يشتري؟!!. وتتَحرك خريطة الجدار المدرسي (خريطة فلسطين) الممتدة من الوريد إلى الوريد، من النطفة حتى الاستشهاد.. من الثانوية حتى الخليج، راعدة مدمرة، حيث هي، فلسطين: ما بين نخاع الخليج وأضلع الأطلسي.

●

وخرج:

كان الناظر في الطريق إليه مسرعـاً، بينما بعض الحراس العامين والموظفين يهرعون هنالك وهنا، في حين، انزوى المخبر مع آلة اللاسلكي يتحدث فيها بما لا يخرج عن أن يكون تآمراً.

الغضب الشاب هو. وصاح الناصر:

- إنهم يكسرون زجاج النوافذ، ويخرجون الفصول التي تدرس.

الفرح الغاضب آتٍ. هزّ له رأسه مدركاً وفكر: ترى لو خرجتُ لهم، أتراهم يدركون معنى خروجي أم يتوقفون؟. شيء فيه لم يعد منضبطاً، فذلك الهدوء المحموم لم يعد يملكه. وصاح المخبر:

- عليكم بالتعرض لهم، حتى وصول رجال الأمن.

فصاح المدير فيه، أمامه سمع بعضهم وسمع فلسطين أيضاً التي كانت على الجدار وعلى الذات الشعبية تنتظر:

- مَن الرئيس هنا، أنت أم أنا؟!

ولأن صوته وقح كصورته فقد أعلن:

- كأنك حديث العهد بالأمور ، الداخلية هي صاحبة الأمر كما يجب أن تعلم.

حينذاك سقط السقوط على بعضه، ولم يعد من احتمال آخر سوى الانتحار الياباني. لذلك صاح فيه:

- إنني أمنع أي استعمال للقوة هنا، أتفهم؟

نظر المخبر إليه بنصف عين وكان على الآلة يكمل فخه، يخطط مع أمثاله وسادتهم ما يمكن أن يحميهم وأرصدتهم من الغضب البكر، لذلك سار المدير نحوهم بتصميم، وكانوا هناك يملكون تمرد الابتسامة الشابة وهم يستحوذون على الساحات والممرات والدرج. وحينما رأوه آتياً، ناغلاً في الجسد الحي، جسدهم، كيقظة وكظل حميم، كحنوّ يريد لهم كل ما لا يملكه، أحسّوا بالأمان: فتفجّرت المكامن أكثر، وعروا دياجير الليل بمتطلبات النهار، ثم تحركوا، فالباب أمامهم، وهم يريدون أن يكونوا فتيل الإشعال، يجددون المدينة ويشعلونها ويردون لها بكارتها المغتصبة، وكان هو فيهم يتجدد، يدمر التكتكة والاستراتيجية ولو مؤقتاً، وينغل في العنفوان المحرق والحلم الآتي...

•

فتيحة..

وتقول: آيٍ آيْ، فهل تعرفون الوجع؟ ذلك الوجيب الشريد بين الخلايا ووظائفها، يتبرعم، يسرح، يقسو

ويتهفهف. كان إغراءً فأصبح حباً، لذلك فالنوم بلا نومه، ومن عصر الأنقاض ينبض شريان. فإذا حكّمتَ عقلك في عصر الكبوات خرجت دون جواب، لكن امتزاجِ النسغ بالمادة يحدث، خصوصاً حين تكون أنت: واثقاً مبتسماً، غاضباً مصمماً، في الباحة والشجرة ومصباح الضوء والزنزانة اللعينة.

●

ولم تمر غير رعدة وصعيق، حتى كان الباب يزدحم بالخوذات والبنادق والعصي الغليظة، فانسلَّ كالسهم، كان جموحه يوهمه بأنه القادر على حمايتهم، وذلك بالانتصاب وحده في وجه الطغيان، ولكنه تلقاها، الضربة الأولى: فغامت الأشجار والساحة والرؤوس عن بصره وقتاً أو بعضه، وحين حملوه إلى المكتب أخذ صوت فتيحة ووجهها يطلع وهي ترشه بالماء:

- هل هو بخير؟ هل بدأ يفتح عينيه؟..

●

الخلية:

وأجابها هو، بصوت مشروخ ولكنه مصر:

- فتيحة، قولي للمعتصم: إنني سوف أحضر.

الورد السجين

تتقلص المدينة وتغدر بكمها وكيفها، لذلك كان صباحها راحلاً، وحينما تعرف أزقتها السابلة والراكبين، فإنما لكي توهم الخارج بشريان حي.

وهنالك، في الزاوية الشرقية من الشارع الخلفي كان انتظار. يعمره الوهم ويعمره اليقين، وكان الاسمان يرحلان إليه، سيراً جنوباً وسيراً شمالاً، حتى الدرج الثلاث فالممر فالدرج العشرين.

جاء وهج، فأشع على الباب، ثم اغتيل، وكانت المقاعد في المواجهة تنتظر، وبينهما صاحب العربة. من هو؟ وأين هو؟. ويتعلق السؤال مع الأسئلة الكلية والجزئية ويظل فراغ عربته معلقا.

وخارج العربة الفارغة، وداخل الفراغ الأعم، حدثت اللقيا، فقد كان هو، يحمل شارته بالتأكيد ويقدم تحيته، فانفتح الباب للشباب الراعد وانبسط الممر.

ـ أهلاً.. متى وصلت؟

ـ قبل قليل، صعدت وحينما لم أجدك عدت إلى الباب أنتظر..

استدار دورة الخبير، ورمى بصراً معتاداً على الزوائد، وأضاف:

ـ كيف حالك، فأنا دائماً أتعبك.

كان صدى الخطوات يصطدم بجدران الممر والدرج والنافذة المغلقة ويعود إليها، طنيناً أصم يرنَ في غير وقته، وأجابت:

ـ أبداً.

ثم مدَّت يدها نحو أحد الرفقاء وحيَّت، بينما ضاع منها بقية الحديث، حينما كانت قد ركزت بصرها ومشاعرها نحو الوالد، أب أحدهم، وهو يحتضن ابناً له

من بين المعتقلين، ثم أخذ يوزع عناقه الحميم عليهم أجمعهم، وكان وجهه الأشيب آنذاك يكابر، يستمد من قناعاته ما يهزم به فورات عاطفته، لذلك ظلَّ كبيراً، عليها وعلى المشهد.

استدارت نحوه بينما وضعت يمناها على حافة السياج الحديدي للدرج وتابعت:

- وأنت، كيف أحوالك؟

- ابتسم نصف بسمته تلك، وأجاب:

- بخير.

أي خير هذا الذي يحكي عنه! فالمدينة، المدنُ، وأدت خيرها، وها هي تغدر به، بأبنائها، ثم تقف على الباب تنتحب.

●

كانت الباقة قد أهلت، فارتفعت الزغرودات، وهي تستحقها، كل وردة وكل برعم، لأنها استطاعت أن تملك حضورها في السر والعلانية، وأن تغزوها وعلى حين غرة، فتتركها مختلة، لا تملك سوى مراجعة الأيام والأحداث وما سيأتي.

وكانت عليها كلمته :

«فقبل كل شيء، تقبلي مني باقة الورد، فهي لقلبك ونفسك.. إنها عطف كبير» : عبده.

●

كان الصف مكتملاً بمستشفى الحي، فالوجوه التي يسكنها الألم العضوي تنتظر، وكانت هاته القاعة، قاعة الانتظار، بمن فيها، هي شارة المدينة وبؤسها العميم، ولأن الصمت مفروض كما بقية الفروضات الأخرى، فقد انتحت ركناً قصياً وجلست، بينما التحق عبده بمكتب الممرضة ليسوي بعض الأمور. ولأنهما هناك، الوالد والولد، يسرقان من الحصار همسات واحتضانات ونظرات أشواق، فقد سقطت في الحزن، وكان ذلك هو ضعفها الأساسي، وأخذت تقاومه، تركز الرؤية على أحمد وعادل، ومصطفى والمهدي وعبده، وتستقرىء بسرعة تاريخهم الصغير، غير أن الوالد الواهن ينتصب بصلَفٍ كصخرة من أطلس يعسكر فيها ويحتويها، قضيةً وثمناً.

وارتبكت أجفانها المبللة وعبده يعود، رامياً جدعه

المتعب على كرسي الممر الطويل:

ـ ما بك؟!

دارت الخجل، واستنجدت ببعض بسمة، وأجابت:

ـ لا شيء.

وحينما توغّل بصره فيها مستفهماً أضافت: أبداً، لا شيء.

الشيء من اللاّشيء. واللاّشيء هل هو الأساسي أو كنهه أو لا معناه. كان تطوافها العتيد بحثاً عن موقف قدم في الشيء وفي معناه هو قضيتها الأخرى. ولأنه هو، عبده، كان يحتضن قضية القضايا، قضية التجسيد لا قضية التجريد، فقد كان هو الأساسي. لكن هل الوالد أسٌّ لذلك الأساسي، أم تعقيب عليه أم لطخة في جبهة العقم أم شارة غد؟.

وقبل أن تمسك بجواب استدراراً للجواب الأهم، كان عبده يتحرك بيده ليدس في محفظة يدها وثائق كان قد أخذها منها قبلاً، ثم أضاف بعد أن استدار باحثاً:

ـ في الخلوة أنجزت أيضاً هذا الرسم، هو لك بالخصوص بل هو وديعتي لديك، فما رأيك؟

كانت ممتنة، لكن دون لسان.

وحينما كان عبده يكاد يضيف شيئاً آخر، وهو يضع يده في جيب سترته، نادى الممرض على المهدي، فالتحق به، عابراً الممر نحو قاعة العلاج، وكانت عيناها تلاحقه، تبحث بهاته الحركة عمًّا يمكن أن يمسك به فيما تمثله. ولأن مخاضاً غاضباً كان الأب الهرِم قد زرعه فيها وذهب، يوزع ضحكته الواثقة على الابن والإخوان، سائلاً إيَّاهم عن الأحوال والظروف الصحية، فقد فاجأها طلب جاء من أعلى:

ـ بطاقتك الوطنية لو سمحت؟

كان يطلُّ من فوق، وجه يكشر، ذلك أنه حاول أن يبتسم فما نجح، لذلك ظهرت أسنانه وخرجت عيونه فحسب، فرفعت نحوه نظرة مستفهمة:

ـ ماذا؟

ـ بطاقتك الوطنية أقول؟ ثم فتح بطاقته، حيث أعلن: مخبر سري.

●

أرفع بصري نحو الباقة ويرتد، حنوناً دافئاً مشتعلاً، ثم أعاود فيكون البنفسجي، أحاوره وسط الهرج الأصم، فيغطيني كغيم ماطر وأقع تحت فيضه ولا أتحمل، وحينما أحتمي من الوهلة والزغرودات والفرح الحاني بالداخل، يكون الاشتعال، حيث الأحمر فواراً مكتسحاً كرعد وكعاصفة، وأمسك بالرأس، وأقول إنه الوجع.. ثم أسير وأجيء، أرفع اللحظ وأخفضه بحياء.. منها، من ألوانها وامتشاقها ودلالتها واندلاعها في الزمن والمكان.

●

وتدخّل عبده.

ـ اعطيها له.

تحلقت العيون عليهم، وكان الواقع يعلن عن نفسه. وهاته الفسحة الضيقة تصادر همساً وتواصلاً إنسانياً، بينما تختلط الأوراق، ليصبح الجائع يطارد البائس، والمضطهد حليفاً للمضطهد، والضحايا في خدمة

جلاديهم، وقانون المدينة هو ذاك، ما دامت المدن قد أكلت بنيها.

وقبل أن تتمكن من الرد عليه، كان الشرطي السري يشير إليها أن تتبعه.

وتحركت، وكان عبده معها، بينما هي كانت مع الوالد: أترى كيف أنهم قد سرقوك وسرقوهم ويحاولون سرقتي، فآشْهَدْ. وحين التقت عيناها بعينيه، أحست أماناً خاصاً: فمِثلُه، كلٌ أولئك الذين قد أضاعوا كل شيء، لا زالوا واقفين، يفضحون واقعاً ويقاومونه. ويمثّلون بحضورهم الفاجع، أن المصائب لا تُفني، لذلك حين جانبته استمدت من وقفته سنداً.

وأخذ الشرطي يسأل:

- أهذا هو اسمك الحقيقي؟

- بالتأكيد.

- وماذا تشتغلين؟

- هناك في البطاقة.

ـ ولماذا حضرت إلى هنا؟

ـ لأزور عبده.

وبعد صمت قصير، أضاف:

ـ طيب، فقد أراك من بعد.

وظلَّ هو بالمكتب، بينما رجعت هي وعبده إلى الصالة، لذلك استرجع منها مسرعاً الوثائق التي بالحقيبة، وهو يعقّب: على أي نحن في السجن..

تنفضح الكتل والعلاقات والروابط وخزي المدينة ولا معناها ويصبح حتى حق الحلم ممنوعاً. السلطة: الفعل المعاكس للحياة يتدخل، وأنت أيها المستأسد في القضية ومن أجلها هو المقصود، ذلك حتى هذا الوهم، ولو للحظات، يريدون أن يصادروه. وتتجمع كل العيون عليها فتحس بالاغتصاب. لذلك ما أن عادت للقعدة حتى بحثت عنه: أبوه وأب القضية، الهيكل المتداعي الذي لا زال يقف، يداه وراء ظهره وهو يمنحنها نظرة تضامن.

●

أذكى الحاضرات صوبت نحوها خبرتها وعلقت على

الباقة وشكاتها: خذي وردة وشميها، فلربما تذهب عنك هاته الدوخة.

الأحمر والوردي والأبيض والبنفسجي، فأيّها يا عالم؟!

●

حاولا أن يبحثا، عبده وهي، عن صيغة موحّدة لأسئلة منتظرة، أن يزرعاه تحت قدم السلطة قشرة موز، ولكن أين كانت؟ فالمكان تعيه وتتوحد ببعض من فيه، ولكنها لم تكن فيه، فهي هنالك:.. تغامر على تاريخ مضى وآخر سيأتي، وما ذاك المشهد سوى مقدمة صغيرة لأدوار حتمية، لأن الاستشهاد الشعبي لا الفردي هو الخلاص.

وأطل المخبر من جديد مستدعياً. وكانت تريده فحسب أن يمهلها، فعراك الداخل كان أكبر. ولم يكن ما يمثّل بها المخبر هو المهم، فهو فحسب، جزء مهمل من مؤسسة مستبدة، وما كان بحثها آنذاك عمًّا يمكن أن يفعله بها، ولكن ما يجب أن يفعلوه هم جميعاً بالمؤسسة؟..

وفي دوامة الحاضر والآتي، فاجأها سائلاً:

ـ أهو من أسرتك؟

فردَّت: «أي نعم»! كأنها تتخلص مما يمثله، أو لعلَّها تمسك برأس الخيط.

وكانت العيون هي هي، والقهر يسكنها، وذلك التضامن الأخرس يريد أن يشدها. ولكن..

●

آهٍ آه... **فاللهب المخصِّب يمرح في الذات والأبعاد والزوايا الخفية، لذلك لِم لمْ ترحمني.. فامرأة مسكونة بالتيه والتلف والأسئلة والطرق الصعبة تنتشر دون تنبه، على الوريقات والألوان والبرعم والمفتّح، وحين تكون الدوامة السرية هي الداخل هي الخارج معاً، فإنني أحتمي بك منك، وأهرب منك لأعود إليك.**

●

.. لم يمهلها، لتبحث عن تاريخ القضية وضحاياها: الوالد والولد، بل ناداها مسرعاً:

قدَّم لها الهاتف وهو يتنحى ويقول:

ـ عميد الشرطة على الخط.

أيَّة قيامة هاته التي تفتعلها السلطة من أجل عبارات

وجسور محدودة، فالسلطة كما قال عبده، تخاف على سلامتها من كلام هامس نردده بالإنسانية ونقوله بالحنان الصامت.

- آلو؟

وكانت راحلة، فشيء ما كان قد تصدع فيها بسبب أحداث وطنية وقومية عديدة، عادت الآن لتتشقق، وما أفلحت قط في تهميشها حتى تدخل هذا الحدث بالتمام، لذلك فكل ما وقع ويقع، يظهر لها كأنه على شاشة قريبة بعيدة، يذهب ضحيته آباءً وأبناء وأطفال ونساء، لكنه يترك بصماته على جسد المدينة والوطن: ندوباً وزغرودات آتية.

- وتكلم الهاتف:
- السيدة مريم عبد العلي؟
- نعم، أنا هي.
- إذا كنت أنت هي، فأيَّة قرابة لك بعبده؟.

اعتدلت في جلستها وكانت نظرتها على المخبر الذي

ظلَّ قائماً على رأسها كسيف وأجابت:

ـ لكن، عن أيَّة قرابة تسأل؟

فجاء صوته متجهماً:

ـ قرابتك بعبده كما ادّعيت.

ـ نعم، ذلك أن هناك قرابة الدم وقرابة الفكر وقرابة الورد وقرابة الود أو قرابة الخذلان، فاختر سيادتك أيَّة قرابة منها تريد.

تحرك الصوت، وكان كأنه يجلدها:

ـ أتستطيعين أن تحدثيني بلغة مفهومة؟

فتعجبت: أأضعتم حتى العبارة يا سيادة العميد؟!

فغضب:

ـ نحن لا نَضِيع كما في علمك، ولكننا نستطيع أن نُضيِّع.

فأكَّدت له:

ـ مفهوم.

فأرعد:

ـ لا مفهوم ولا غير مفهوم، يجب أن تأتي إلى هنا لنتفاهم بشكل آخر، فهذا هو الواجب.

•

وفي الطريق، كانت المدينة صمَّاء بكماء، وفي الجهة اليسرى منها، شارة وباقة وزنزانة..

السهرة اليتيمة

تتناثر المصابيح جذلى بالابتعاد، بينما السيارات الرابضة طولاً وعرضاً تستقطب فرح المدينة، أما الأكواخ والمؤتمر اليتيم وكل أولئك الذين على هامش هوية اليوم فهم يستفهمون: كأن الجفاف لم يبلغ سمع هؤلاء وجيوبهم؟..

ويبدأ الرقم يغازل على واجهة المرقص، كان نداؤه مستجاباً عند طبقة، ولكن هتافات بقية المراقص الأخرى لا تقل عنه، وبذلك تراكمت على المرائب الرسمية والجانبية مئات العجلات الوثيرة والصلبة، وبذلك أمكن للملاحظ البسيط أن يضيف: ما الحقيقة، هاته المدينة أو تلك؟.

وجاء صوتها، وكان به هلع خاص:

- أين المؤتمر الحقيقي، هنالك أو هنا؟

ومع ذلك ضربت مفتاح مذياع السيارة لعلّه يقول شيئاً، كانت تريد فرحة صغيرة تقدمها للقلبين اللذين تحمل، ولكن حزنها يصطدم بالرغبة، فتركبها حالة بين التعتيم والضياء.

وقال عبده:

- بيني وبين هاته المنطقة زمن مهم.

كذلك الزمن الذي بين هاته المدينة وبقية المدن، وكالزمن الذي بينك وبين روّاد هاته المنطقة، وكالمسافة التي بين حزنك وفرحهم، وكالثمن الذي بين يوم هاته الأرض وغدها..

ثم تساءلت:

- أين الفرح؟ إن التّخوم لا تحمل سوى عكسه، فالداخل مسكون ببحث شرس في المرئيات وغيرها، ولكنها ماذا ستقول للقلبين الآن؟ واقترحت:

- ما رأيكم اليوم في تفسح ليليّ؟

وكان صمتٌ قِلق هلِعٌ مترقبٌ يعمّ السيارة ومن فيها، استدارت نحو سليم باستنجاد. كانت تعرف أنه يحمل عبء سماته فحسب، لا يتعداها، غير أنه كان قد سقط في العياء. لكن القلبين كانا هناك وهي كيف تفعل بهما؟

وحين ظلَّ سليم على صمته أضافت:

ـ ألا تود أن تقول شيئاً؟:

فتأوه. لذلك لم ترحمه:

ـ عهدي بك تملك بديهة ما، فما لك اليوم؟

انتفض ورمى دخان سيجارته من أنفه وفمه، ثم وضع يده على ظهر المسند الأمامي واقترح:

ـ ماذا تريدين؟

يا هذا؟ إن يكن الخمول مسافة للنكوص، فإن الفرح الصغير ضرورة للنبض. وأجابت وهي تقرر:

ـ لا شيء، إنما سأتصرف لو سمحتم.

وكان هو، عبده، يقيم جسراً بالصمت والعبارة، يخاطب القضية وسناء، يستريح للاقتراح ويقول:

ـ من الأول افعليها.

فردَّت باعتذار:

ـ كان ينبغي ذلك.

ثم استدارت نحو الفرح الحزين، نحو سناء وقالت: ألا تسعفينا بنغم؟.

وحينما أطلَّ البحر، كانت تعرف أنها تمثل دوراً. وكانت تدفع بالآخرين لأن يفعلوا.. أن ينسوا أنفسهم وقضاياهم وتلك الأحزان المغشوشة التي سبحت في القاعة والمنصة والأسماء المنتَخبة. إنما أين الفرح؟.

يا فرح السجون ويا قهر القهر ويا تجاوز الضرورة ويا من تعيش حياة الآخرين يا أنت؟

وأحست بحنجرتها وهي تخاطبه بالصمت، ثم وهي ترد له الاعتبار الواجب، فإنها إنما تعود إلى عصور سابقة للتاريخ، إلى عصر الخلق الأول. ثم وهي تعجب لكبريائه المتواضع، وهو يتناحر مع رذائل هذا العالم. لهذا قررت أن تفرحه.

استمالت يساراً، واختارت موقفاً. وحينما انتبهت، كان عبده يبتسم وهو يضع علاَّقة محفظته على كتفه، وفكرت: ذلك ما أريده، أن نملك بسمة، أن نصنع مشجباً، مرفأً صغيراً، بينما كانت سناء لا تزال تترنم بمقطع لأغنية ثورية.

ولم تمهل الصمت ليقهرهم من جديد، بل اقترحت:

- سنترك الأخ عبده يقودنا.

وكان خجولاً، حيياً بطريقته، ومع ذلك أسرع:

- على العكس، نحن نترك لك القيادة.

لكن هلاَّ تدري أنني لو ملكت أن أقود ولو عرفت، لقدتكم نحو أرض جديدة، بإنسان جديد وعلاقات جديدة وقلب جديد. غير أنها تذكرت: أليس هو، أحد القلة، المسكونين بنبض هاته الأرض!.

وضربت المفاتيح ببعضها كأنها تنتقم أو تتذكر أو تعود أو تعاقب نفسها أو تمثل الدور. وقالت:

- ألا يكون للأخت سناء أي اختيار؟

ولكن كانت قد سقطت في هذا اللون من الوجد، في ذلك الحب الذي يملك اقتدار أن يجدد العالم، ولذلك كانت تخدمها:

- لا عليك، سنتصرف.

وضربت أرجلُهم إسفلت الشارع، وكان كل منهم يهرب بطريقته من وجع الزيف والنتيجة، وحينما كانوا ينغمسون في الجموع المنتقاة، كانوا فحسب يوظفونها: إذ أليس للحياة الإنسانية ثقلها اليومي؟.

وحاولت أن تجر سليماً قربها، أن تفهمه أن عليهما معاً أن يعالجا كدر عبده بالجلسة والحديث، وحينما تفعل، فهي أيضاً تعالج الآخر: من لا زال وراء القضبان والأوامر، وذلك لتلتقي بأمنياتها المستحيلة.

وتأوّهت وهي تسأل سليماً: دلُّوني على إنسان واحد يعرف معنى العافية؟ وأحست أنها مشروخة بالتمام، وخافت أن تسقط نتيجة القضبان والحراس والمفاتيح وهي تغور أبعد، حين ترى أن في كل قضية عدَماً لا يُقهر، ولكنها استنجدت بالذكرى، حينما كان هـو،

الآخر، يريد أن يزيد في تعميق جذورها بالعالم الموضوعي، بينما تحاول هي، أن ترحل به إلى عالم الخوارق.

وبغتة، استدارت نحوهما، فرأت سناء تنظر إليه، إلى عبده بشغف وتهيب، بينما كان هو، يسير إلى جانبها، دون أن يذبله سجنه هو الآخر، أو أن يسرق منه عناده النضالي. ولأنها بطبعها مسكونة بالتساؤل، فقد نسيت سليماً وتساءلت: ترى الآن عبده، وهو يضربُ في تُخوم المنطقة وسناء، أليس ذا حوار يتسع لأكثر من منطق ومعنى؟. غير أن ما أعجبها أكثر، هو أن تضبط خطوته على أديم الأرض، وهو يركز نظرته في الأضواء والسحنات والسيارات والأسجية، لأنه على اتصال جديد بها.

وفي تنبهها ذاك، كانت سيارة تمرق، لكن يد سليم تحركت في الوقت المناسب، لهذا صاحت سناء:

- آي.. وبذلك التقى الأربعة.

ثم اختاروا مقهى جانبياً بسيطاً، وكان الليل قد ألغى

نصفه، بينما كان البحر ووجعه يعم، غير أن الخلل الضخم، لم يكن في البعيد: إنه في المدينة في القطر في الوطن الكبير.

وكان ذلك الخليج الضوئي المتسلط من أشعة القمر على سطح البحر، يدغدغ موجاً، فغرست فيه عينيها، بينما نادى سليم يطلب النادل، وهو يجود ببسمة، في حين أخذ عبده يستنشق عبيراً وملحاً لمحيط أطلسي. غير أن سناء كانت قد سقطت في العمق والمدى ولم تطلع بعد، لهذا اكتسى وجهها بندى طفولي محبب.

وأطلّ جزء من قمر بعد أن كان قد اختفى. كان يناور، يرمي عينه اليسرى بعد اليمنى أو إحداهما فحسب. وكانت نظرته تنكب شعاعاً أو أشعة على البحر، بحيث تحول البحر والقمر إلى صلات متجاذبة أخذاً وصداً، وبذلك عادت للسؤال:

ألا تكون فحسب، ثانية واحدة من عمر الزمن، تعكس أبداً؟ وأن تلك الأشعة الذاهبة الآتية تمنح أملاً؟.

وبينما كان النادل يضع الشاي والكؤوس، انفجر وجع

الداخل، فواراً ومحتوياً، لهذا تساءلت مع نفسها: أليست الثورة هي السلوك، وأن الجوهر الإنساني يحتضن العلاقة الاجتماعية مستبطنة داخل الفرد؟ ثم أضافت بعد برهة:

إيه، ألا يكون هذا التشوش الذهني مجرد ترف؟..

وبذلك سقطت في الذنب. وبسبب ذلك ضاع لها سمَر الجلسة ودفء شايها، وقيام القمر بعدة رحلات ومناورات دون أن تدري. وحينما عادت، وجدت عبده مرتاحاً للاطمئنان ولطبعه، غير أنه لم يكن ليخدعها، فهي تدرك أنه يحتمي من الوحدة بالناس والأفكار والكلمات، وبذلك فهو لا يهتم بالعابر، بل إنه يحاور الأس والجوهر. وكان سليم يتحدث عن القمر، عن مشروعية الجمال، وعن حق المناضلين في أن تكون لهم متعهم الصغيرة، غير أن عبده كان قد أمسك بالنادل وهو يسأله ويضحك:

- أنت ترى البحر، أليس كذلك؟

كان البحر هنا، والنادل على حافته يتحرك جزءاً من عمره.

لهذا احتجَّ وهو يجيب:

ـ على العكس فأنا لا أراه، إنني لا أرى سوى السرير، لأنني أريد أن أنام، فمن الحادية عشرة صباحاً وأنا أشتغل.

قدم له عبده سيجارة، وأشعلها له، ثم دعاه إلى الجلوس، غير أن طلبات أخرى كانت تنتظره فاعتذر.

وغرست تنبهها فيه وهي تستفهم: أهذا هو من يحاول أن يدمر الواقع بشِعره ويعيد بناءه؟.

وكانت سناء ترد على سليم، بينما عاد النادل مبتسماً، فصاح عبده:

ـ مرحباً.

ورمى بصره عليهم وأضاف:

ـ إذن فأنت تحتاج إلى النوم الكافي.

فأجاب النادل بسرعة:

- نعم.

- وكذلك إلى الأكل الكافي؟

قهقه النادل وقبض على مقعد عبده وانحنى عليه فتابع عبده:

- ولكن إن ظللت هكذا هل ستحصل على الأكل والنوم الضروريين؟!

ارتمت العيون على بعضها وكانت عيون النادل أكثر اضطراباً: كان قد فهم، ولكن الخوف كان يسكنه، غير أن فم عبده كان فمه، ولذلك لم يستطع أن يبتعد، بل ازداد انحناءً عليه، فأضاف عبده:

- حينما يعرف الإنسان ما ينقصه، فيجب أن يعمل من أجل الحصول عليه.

قهقه النادل بضحكة وضحكنا معه، إن عبده وعبده، يحفران الخندق بالإبرة والمعول: وإيمانهما بالغد يأخذ عدة مساريب. وجمهور المؤتمرين يومه، يلزمهم الإيمان والصدق. وهذا النادل هو الابن الشرعي لليوم وغده، لذلك كان يتكلم، وكأنه قد وجد جمهوره...

والتقت عيناها بعيني سناء : ترى أليس بسبب هذا قد أسقطوه اليوم في المؤتمر؟!

فضج البحر ورفرفت الأشعة وانتعشت القضية وقال النادل :

لقد فهمت..

فصل من العذاب

يا نافورة الخصب أين نداك؟.

كان المكان يقع أسفل الأشعة. وكان الزمن به قَدْ عَبَرَ. فَأضلعُ المقعد الكبير قد ضاع بعضها، بينما لم تعد الشجرة المزهرة تلد، أما الكلأ الدائم الخضرة فقد عصفت به أرجل الكبار والصغار، وبذلك أَرْستْ وجهها على المرآة وقالت: أكيد أنه الزمن.

ليس خوفاً منه، ولكنه شوق إليه. رمت جسدها في الحافلة التي انتظرت أن تكتظ. كان ركابها جدداً، مهاجري البادية إلى المدن، وكانت معهم تحس أن دم المدينة سيتجدد، وفي الازدحام والتعرق ورائحة آلدّيكَة، حَيَّتْ أيام زمان، ففي هذا الخط نفسه، استهلكت

الأشهر والسنوات، حاملةً الحقيبة والكراسة: الألفَـة المراهقة والوجد القديم..

شَرَّعَتِ النظر، كانت الرابية هناك، تستلذ بـوهن الكهولة وتبحث عن الشريان، غير أن السماء كانت قد تعبت من جحود الأرض فنسيتها، لكن استرحام الربوة والشجرة ورأس الخروف المنكب على ضرع الأرض الجاف يفعل فعله في السماء. وتذكرت بوجع: لطالما استظهرتُ درسي أمام مكتب الأستاذ وأنا أغرس تنبهي في يفاعة الربوة وخصبها، لكن هل حتى هي أيضاً، الربوة نفسها، قد غيرت الاتجاه، فعصفت بها رياح السموم..

المؤسسة:

ـ اتركيني، قد يبحث عني السيد المدير.

كانتا تختفيان عن المسؤولين الإداريين من أجل مشروع، ولم تكن مليكة تملك عنفوان عائشة، لهذا انسحبت لتلتحق بالمكتب، لكن عائشة استدركت:

ـ إذن لنلتق عند الدرج القريب من مطعم الكلية، لنواصل الحديث.

هزت مليكة رأسها موافقة واختفت.

وكذلك كان وكان.. جرَّتها عبر التجربة وجعلتها تتفتق..

جلسة:

أما ربيعة، ولأنها دبلوماسية، فإنها تملك لغة عطرة ونفساً مهذبة، لكن أين القنوات المتشابهة؟!. وقالت باحتجاج:

- باستمرار أدعوك لصداقة، بل لمشروع صداقة فما تدلين برأي. وترد عائشة:

- ولكني كما أقول لك، سيئة بشكل ما، فلن أتوافق إطلاقاً مع الصورة التي وضعتها تكرماً منك لي.

جددت سيجارتها، واكتسى وجهها ابتساماً لطيفاً.

- ليكن، فأنا أقبل مسبقاً أيَّة مفاجأة أو تباغت، المهم لنترك اللقاء يعطي نتائجه.

شيء فيها يدفعها نحوها، وشيء آخر يبعدها، فلماذا لا تدخل حياتها لتنسف لها تلك الجسور والعلاقات

والرضى، لتوقفها على خواء لم تعهده من قبل،لتجعلها تعيد النظر في بدء منطلقها ومنتهاه الحالي، لتنقذها من شكليات ومسميات ومصطلحات وأدوار، لتجعلها ابنة شرعية لما كان يجب أن تكون ابنته من الأول». ولكنها تذكرت مليكة: آه يا وجع الأمس وحرقة الآتي. وبذلك ردَّت بحدة:

- لنترك الزمن يفصل في الموضوع.

وزاد من إصراها، تفكيرُها، بأنَّ هذا الجهد، يمكن أن يقدم لغير صنفها، لأخريات وآخرين، يملكون شرعية البدء الصحيح، ومن ثم فلا تجف النافورة، ولا يموت خصب الشجرة، ولا تتكسر قضبان المقعد، ذلك الذي عرف مناقشات المشرَوع الفكري الذي ظهر.

الحافلة:

يا مليكة؟ يا وجه المدينة الـذي تقلص بالألـوان والبنود وكل مستورد، وترك الكثرة الكثيرة تتـزاحم وتتناحر على درج الحافلة وأرضيتها المثقوبة، أما تعرفني دفاتر دروسك وجلسات حفظك، وهاته الحافلة وأنا أدفع

عنك منذ الصغر ثمن التذكرة؟

النافورة جفت، والرابية يبست، والشجرة مالت، والشاة انحنت وهل أنت رحلة العمر الخاسر. . .

استأذنت الواقف بجانبها، وتحركت يساراً، لأنها محتاجة لذلك، كانت أسطح بعض الأبنية البيضاء تظهر، وكان ذلك بالنسبة لها تحية خاصة، مرفأ للتواصل من أجل قهر القهر، ودفن الخسارة: ففي الماضي قرر جدها أن يغرس اسم الله واسم محمد وسط حي اليهود بالمدينة، هذا الذي تعبُر الحافلة يمينه الآن. لقد كان لجيله أسلوبه في النضال، وبذلك استولى على أرض لبيعة وبنى بها عمارة، جعل إحدى شققها منطلقاً لصيحة الله أكبر. فاتحد يهود القطر لمواجهته، وقرروا تخصيص ريال إضافي لكل يهودي يشتري كيلو من اللحم و «بسيطة» لكيلو من الطحين، ليخصص مجموع ذلك كمصاريف لمواجهته في المحاكم، واحضروا محامين من أ رويا، وكان هو، يدخل مجللاً بوجاهة الدفاع عن قضية، نظراً لمعرفته بأن من اليهود من مدَّ ويمد يده

للأخطبوط الفرنسي قضية الوطن.

استطالت من خلف الرؤوس الراكبة، وكانت تريد أن تحيي القضية والنصر في سطح العمارة، وأن تكسب من دلالتها اقتداراً إضافياً للتغلب على الجفاف، وتساءلت: أليس ذلك قدري: أن أكون من سلالة من اختاروا نضالهم الخاص منذ البداية؟

●

المدينة:

تحتمي فاس ببعضها، تتداخل أبنيتها وشوارعها وأزقتها. تستكين جدران بيوتها على بيوت جيرتها، يأتلف أهلها كأسرة كبيرة، يوزعون أفراحهم وأتراحهم بالقسطاس، يؤهلهم التاريخ ليجددوه أو يقتلوه، يشتعل وهج الرب أحياناً على مداها أو ينطفىء، يحميها بانيها وحارسها ويأمرها: الله أكبر. يزيغ أهلها ويثوبوا. تسبق فاس تاريخها ويهدموها حاضراً، تنكمش على نفسها وترسل بنيها أنبياء ورسلاً، بانين أو مخربين، ويصيح المؤذن: الله أكبر. آنذاك تُشرِّع بابها الكبير وتستقبل الأفواج تلو الأفواج. التجدد الذي يحصل كل قرن،

حينما تهجم القرية على المدينة.

●

وتقول مليكة:

- أنت سارحة، لقد أخذتك المدينة مني؟ أليس لي أن أسمعك؟.

كما حاولت وفشلت ألا تأخذك المهنة، ألاَّ يسرقك الرصيد البنكي، ألاَّ تلغي صوتك المواصفات الاجتماعية، لكن..

- كما تعرفين، فأنا لست توابل موسمية.

انشدهت مليكة وكانت بها رغبة للمزيد:

- ولكني محتاجة لصوتك، لك بالخصوص، حيث يتكسر التبلد المحيط بي في المهنة، حينما أُحاصَر الحيثيات والفصول والبنود والأحكام.

ضربت عائشة حافة المائدة، كأنها تستشهدها على لواقع ولم تسامح:

- بل حينما تحاصرين نفسك في الوضع الجديد ذي فضلته: الاسم ولائحة الاسم والواجهة والرصيد

البنكي، ثم تساءلت بالصمت:

هل ذلك هو مداها، بُعدها النهائي الذي تستطيع أن ترحل إليه؟ أن تكسب من خلاله اسماً وأبّهة ومركباً فاخراً.

ودافعت مليكة:

ـ ولكنها مهنتي.

فأوضحت عائشة:

ـ المهنة قد تكون معك أو ضدك، فاختاري منها ما تشائين.

فتعجبت مليكة بألم، وهي تغرس بصرها في الأخرى:

ـ ولكن كيف؟

ـ ألست محاصرة بجماعة لا تتحدث سوى عمَّا استطاعت جلبه من أوروبا، عن نوع الديكور الذي غيرت به القديم في بيوتها، عن أنواع الماسات وأثمانها، عن...

وصاحت مليكة:

- ولكنهم رفقاء ورفيقات المهنة.

حين ذاك وقفت عائشة. كان ذلك حدها الذي تقف عنده في الحديث، حينما تجد أبواباً مقفلة عن قصد لا عن ضرورة.

●

الحافلة:

كان ذلك ماضياً. وهل ليس اليهود والصهاينة سوى وجهين لعملة واحدة؟!. وأن تكون ضد مصالح وطنك فلست بالضرورة أن تكون يهودياً. لكن حينما تتحول صهيونياً فالعداء مستحكم.

وتنبهت: إنه خرير.. الماء يجري، عبْر الأرض يتضوع ويقول: لا يأس رغم الهزيمة، ولا جفاف دون نهاية. ومرت الحافلة على مجراه وكانت في الجذل، بينما تشرَّبت وجوهُ الراكبين انتعاشَ الأرض المروية.

●

لقاء:

هل اللقاء عبور أو تواصل أو رحلة في الذات وفي

الآخر، كان من قبل أُسّاً وهيكلاً، تلاحماً وتواصلاً، وأصبح الآن هامشاً.

كانت مناسبة. والمناضل عليه أن ينتهي من نفسه ليكون في الآخرين وبهم، لذلك شاركت.

قالت مليكة:

- تغيير كبير أن تشاركينا، فهل أخذناك؟

وتمتمت زينب:

- طبيعي فالكثرة تغلب القلة.

الوعي أساساً حينما يَعُمُّ، هو المنتصر. ومن أجل هذا الوعي جئت. والقضية ليس من يأخذ الآخر، ولكن من يُعَرِّفُه بواقعه وواقع أرضه لتغيير ذلك الواقع. والنسف أساساً ليس من الخارج. والوعي الإنسانيُّ ليس تجريداً نفسياً أو فكرياً صرفاً، ولكنه نسق اجتماعي. لهذا جئت. . وأجابت:

- لكن المهم هو كيف جئت ولماذا؟

تلاقت أعين الاثنتين ولم تجد مليكة ما تقول، كمخرج أو إدانة:

- المهم أنك جئت، لكن لماذا هذا اللباس عليك من مدة؟

كان كل شيء يسقط آنذاك في الهوّة، وكان الصبا واليفاعة وبهجة الأيام الأولى وما كان يمكن أن يتواصل، يغيب. إن المرحلة مرحلة الواجهات المزخرفة. وهؤلاء في بُعد بعيد عن الرجة المنتظرة. وكل الإرهاصات التي يحبل بها الواقع في غياب عنها. والتيار حينما يعمّ فما تراهم سيقولون له؟؟ ثم حسمت:

- تستطيعين أن تفعلي ذلك نيابة عني وعن كل من ليس قطيعاً، لكن لا تنسي أنني امرأة بقضية، وأن الثمن شرط لمن اختار..

●

الحافلة:

المقبرة: إنها من هذا المرتفع تطل. الموت يطل على الحياة. آيٍ، وجع. لكنها الحتمية. فحينما تعم

الأمراض كل المفاصيل وحواس الذات، فليست التهدئة هي العلاج. هكذا قال التاريخ: دورة فدورة. لهذا غرس التاريخ موتى المدينة في مرتفعها، لكن هل لِيُميتوا فيها أوباءها وعياءها وشيخوختها ويبعثوا منها نداءها الوليد. وتمسحت بالأكتاف: البدو الآتين من الربوع القريبة والبعيدة، الساكنين الدور المزخرفة وأحياء الهامش: وحينما نزلوا من الحافلة، تشعبوا.. ارتحلوا في المدينة.

ففكرت أنهم يوزعون الدم الجديد في شرايين الأرض وشروخ التاريخ. لكن المهم: هل يعرفون كيف يقتلون الموت بالحياة؟.

الأصناف والأضداد

هذا النهار، كان كأنه يطلع على الأرض والأشياء للمرة الأولى. وفي الخلف، كانت النافذة الزجاجية للمقهى الصيفي تحِنُّ لبعض الزبائن والبسمات، وتلك المربعات الخشبية التي تفصل الباحة عن المدى الرملي تسمح لأشعة شمسية بأن تعانق الكأس والمائدة، وكان البحر يتألق من بعيد، وعلى الجانب يبدأ النداء الهامس للباب المُوصد.

القدود، وبالأخص تلك التي تتحمل تضارب الفصول وعراكها، تواجه الشمس والظل، أما المُويجات المتبرعمة فقد كانت تنتشر بعذوبة على سطح البحر، لكن الصخور المتكبرة تبقى محملة بذلك النذير العاصف لهذا العالم المخبول.

صمتٌ مسيطر خفيّ، معبأ بكل الصرخات الغير المعلنة، القابعة فينا إلى حد أن القلب يرتعش بانتظار أن يخرج بها من أنفاق العقل المجرد وظلمات الواقع ومما يشكله أحمد.

وتتحرك الأريكة فينخدش جلال الصمت، ثم تعود العيون لتنصهر في أنين المشهد والعبارة.

الوجع في الحرف في الحياة في البسمة في الربيع وفي هذا الخدر الذي يملأ الآن ناصية المدى. أريكة وأخرى وهاته الآهة ما لها لا تريد أن تنطلق من قفص الصدر، لتصبح فكراً أو عملاً أو شعراً، فيا نفسُ، أَرْخِ الحبال لأوتارِك، لخلاياك، لأعضائك، واجعلي لقاءك بالناس والواقع والذات غير أن يكون في لحظات نادرة مونولوجاً داخلياً، وفي الاعم حروقا واشتعالا.

رمى نظرة مدركة نحوها، وكان كالعادة يريد الاتحاد بها في الغربة والألم المبدع، ثم تحرك، فخرجت بعنف من تلك الغبطة الحزينة، حيث تمتزج الرؤ ية بالحقيقة، وتساءلت بصمت، ما لي وله، هذا الإنسان بالذات؟.

لكنه أحياناً كان يستطيع أن يفعل شيئاً وأن يتقنه، وذلك حينما يتجاوز ذاته وينطلق من جذورها، باحثاً عن كُنْهِ العلاقة والتوحد، غير أن الاستفهام الأساسي دائماً بالمرصاد. . .

من قبل لم تسأل، حينما كانت العجلات تكسر اعتياد مقصدها في البحث عن نقطة غير معينة، تحملها بعيداً عن عرض واسم واقتراح، فهل كان وسيلة وكفى؟!.

غير أن حزن الليلة الماضية، وكل الليالي والأيام الماضية، ينبجس في داخلها ويتضاعف ويروي بغزارة، الاستفهام، والارتباك والقعدة الغير الرخية، لكنها في غفلة، تركت رأسها لكفيه وهما تضمانه لوقفته في خشوع، وكانت هي، الغير المرتبطة بأي جذر، تستكين للكفين الغير المضبوطين بغاية، والمترفعين عن تأطير الضمة في جنس أو دلالة، لقد كانت فحسب، محواً لليتم والتسمية والاستخدام والهدف: كانت هي فحسب، تلك الضمة، خاصة بمخلوقين يحملان حزن العالم ويرهنان حياتهما لزواله.

- يكفي.

لكن، هل هاته الغبطة الرائعة عبثية ولا تبرير لها؟! ففي هذا الصدِّ الهاربة به ومنه، كانت في مواجهة مسرّة البحر وحنوِّ قبة السماء، وكان هو في الخلف، محافظاً على المسافة التي تراها ضرورية، مثقلاً بالرغبة التي يُصعِّدها ليحترق في فرنٍ مطلقٍ لا يؤمن به، مع أنه يجعلها تحس أحياناً، حين تكون معه، أنها في حلبة صغار المتنبئين الذين لا تخطىء مسارات رؤاهم دائماً، أو أن الحياة بسيطة، مليئة بالأشياء الطيبة المدفونة تحت ركام من النذالات.

ثم تمتمت لنفسها: مع ذلك، فكل عالم جديد، لا يخلقه سوى أهله. حينذاك كانت يده قد احتضنت أصابعها، فارتعشت الأصابع وهي تفجر دلالات الوحدة الغنية في تلامس حنون، لتشد أزرنا، ونحن نقف عراة أمام النداءات الشديدة العمق فينا إلى الحد الذي يضيِّعنا ويعيد خلق الرب فينا.

ثم سحبتها من كفه،

فتابع العالم ترنحه كجريح . .
إنما مَن جرحه؟ .
فقهرُ القوانين الخارجية التي لا تخدم الإنسان، تبقى مسجلة في ممارسة الأسياد، أما وجِه المدينة فهو يرشح بنبض غير تاريخي، لكن هل حتى هو؟ .

وفي الطريق كان الاستفهام ينتصب، بينما الذات تتكهرب وتحن، لكن هل يا ترى أن كل السائرين والغادين قد نهلوا حتى اقتراب الثمالة، وهاته الذات حتى هي تتفتق، لكن، ما لك يَا صَمَمُ الأزمان المسبية لا تجيب؟ .

أوقفت الاستفهام ومدت يدها نحو يده فكان الخوف، إنه لا يصدق . . والغريب أنها حتى هي، تريد سرَّ الحالة أو الحدث أو الشيء حتى منتهاه، مع أن الأرض قاسية الأديم حتى أنها لا تتقبل أحياناً أمطارها المرعبة الخصب.
تململت قعدته وشدت يداه أكثر على المقود، وكان ينتظر فرصة ليزعق: يا ابن الكلب ألا ترى الطريق؟!.
فردت عوض الآخر:

ـ لكنه حقه.

ومن بعد، حين وصلا، كانت دُرَجُ الوزارة تتصالب وترتفع، وكانت الممرات الوجيهة تتيه وتلف في الحق ووهمه، أما أبواب المكاتب المبطنة جلداً، فهي تُرعب الجحافل من المقهورين وطالبي التسويات. وعند الطاولة اليتيمة يقف حارس يصول منها بدوره على جمهرة الزائرين.

انتظرت ريثما خفَّ الزحام على مكتب الحارس، واستفسرت:

ـ من فضلك، أين يوجد مكتب رئيس قسم الموظفين؟.

كان يضرب على كتف حارس آخر جاء لتوه وهو يضحك ويقول: سوف أحكي لك من بعد كيف انتهينا بالأمس، والله ممتاز..

ـ يا سيد، أرجوك أن تدلنا على مكتب...

وقبل أن تتم، قطب وجهه بغتةً وصاح مجيباً لأنها بذلك السؤال، كانت قد قطعت له تسلسل الحكاية:

- رقم 186.

التفتت يميناً ويساراً وهي تستفهم:

- ومن أين لو سمحت هذا الرقم؟

أشار بيده، بينما صوته ووجهه صوب زميله..

بقيتِ الدرجُ تتسامق والمكاتب تصطف، وكانت هي وهو يعبران، برجاءٍ وندم. ولأن الأبواب موصدة في وجه الطالبين، الزائرين، العابرين، الآملين، فإن الغضب كان يكبر، ألأن الأشياء الصغيرة أُسُّ الأشياء الكبيرة، أم لأن الإنسان قد ضاعت قيمته؟.

وحينما كانا ينتظران عند الرقم 186 فكرت أن تقول له ألا داعي لتمديد إقامته.. غير أنها أرجأت ذلك، حيث كان الصوت الآتي من خلف إحدى الأبواب يطوي الصفحات والزمن الحاضر بحثاً عن التسميات والواقع الآتي.

لكنها من بعد، لم تستمر في الصمت، خصوصاً وأن تبلور الأدوار والمواقف ليس معتماً إلاَّ لمن كان يريده

كذلك. لهذا قالت له كمن يهذي، بل كمن يفور من خلال لفح بركان ذاتي غير مطفأ.

ـ أليس الأَولى بنا يا أحمد، أن نُطهر أنفسنا من الخلل العام، أن نجددها لكي لا تأتي أيَّة حركة في المستقبل دون أن تكون تحمل شكلاً ومحتوى جديدين، ولهذا أرى ألاَّ داعي لتمديد إقامتك هنا..

وحينما كان يفتح فمه فيما يمكن أن يجيبها به، نظرت إليه، فتصورته كأنه يدافع عن الأشياء الثابتة، لهذا استدارت مباشرة ثم تحرّكت نحو السِّياج الحديدي القصير، حيث استقبلت هبوب رياح معتدلة. آه؟ الاعتدال أيضاً. وفكرت: من يمسك بالسرمدي في الزمن العابر، ذلك الذي لا يقهره العمر.

وحين تنصلت من الحلم، عادت إليه، وفكرت في انتظارهما العقيم ذاك، ومن كل ما يمثلانه، ثم تساءلت بإدانة: أليس المهم هو الضرب في الصميم، لأن الثورة، بل مشروعها هو الثورة على الذات أولاً، لإبطال المعوقات وممارسة الخلق. ومن ثم فاجأته:

ـ لكـن لماذا هذا التشبث بالاستقرار هنا؟!

كان كالشهيد وهو يُطعن هكذا بلا رحمة. ولأنه لا يستطيع أن يقول لها: من أجلك، لأن ذلك وهمٌ قد أبطلته، ولأنها لن تقنع من أي أحد سوى بالمشاريع الكبيرة، أما هاته الخصوصيات، فإنها تغرقها أكثر في امتدادات القضية والفكر.

ولأنه لا يملك أسلحته، فقد أصبح يحاول أن يعطي لعمره الشخصي أهمية، لهذا فهو يفضل المريح.

كان ذلك قد فهمته على مراحل، وبشكل مِلْتَوٍ. لكنه أصبح يشكّل حقيقة قائمة في دنيا المناضلين المحدثين المتعبين!... فيا أيها الرجل الكفء، الذي لا يرتعب أمام الإرهاب والعنف والخسارات أين أنت: يا شعبنا العربي الجسور؟؟.

وجاء صوته نكِداً حيياً:

ـ أعرف أنك تدينينني، فوطني في حاجة إليّ وإلى أمثالي، وأنا كيف أخون مَن كنت، وأبحث عن وظيف

مريح في قطر شقيق، لكن أليس من حقي أن أتعب، بالإضافة إلى أن الوطن العربي هو هنا هو هنالك سواء. . .

أتت حركة خفية، فأدرك أن عليه أن يصمت: وصمت. وكان يتألم، وكانت هي تراود غضبها المتقد، وكان الحزن يمور في داخلها بهياج، غير أن الصمت لم يدم، بل تساءلت مع نفسها: ألم يتخل عن أسلحته، حينما أصبح يصنع خنادقه من لغته، وتكلمت:

ـ أحمد؟ عهد الشعارات ولّى، وطنٌ عربي واحد!. أليست لكل قطر خصوصية النضال فيه، وإخوتك هنالك، يقدمون في كل دقيقة براهين صمودهم، وأنت هنا لن تكون صاحب قضية كما يجب، وكل قضية يجب أن يُعمل لها من الداخل.

وجاء صوته مفجوعاً:

ـ وهل تظنين أنني هنا لن أفعل شيئاً؟!.

أرغمت السيل في داخلها ألاَّ يصعقه، ومع ذلك قالت:

- سهرات النحيب الثوري بالويسكي والمقبلات أليس كذلك؟! النضال من الداخل وإلاَّ فلا شيء. ثم أنت لست إطاراً حتى تكون قادراً على تحريك الجماهير من الخارج، أنت من القاعدة ويجب عليك أن تناضل معها وتتأصل فيها، وإلّا...

كان صوتها آنذاك واضحاً وكذلك رأيها، بينما كان عقلها يلتهب: مع أو ضد، ولا مكان ثالث بينهما. والآخرون الذين ربطوا حياتهم بالقضية: السجون والمنافي وشظف العيش، ومع ذلك لا زال أحمد يقصد الباب المبطن بالجلد...

وكان هو في المواجهة، قد اكتسى وجهه بحمرة مضطربة، وكان يحس أنها بذلك تدمر علاقة اعتقد أنها قائمة، أما هي، فلم تكن تؤمن بالمحطات الصغيرة والتبريرات الخاصة والقصور الذاتي.

وحينما تمكن من أن يقف أمام السياج القصير، وهو مُواجَه باستفهام: فما تراه سيفعل اتجاه هاته التي لن تكون سوى متعبة واتجاه القضية؟ انسلت هي خارجة تاركة له واجب أن يختار..

الانتماء المؤجل

كان ينتظر.. . وظلَّ ينتظر .

وببطن أمه كان يلتصق، يحتمي بالحاضر من المستقبل ويدَّخر منه. لكن وبعد أن صاح صيحة اللقاء، تركته. . امرأة مشدودة للترحال والترقّب، لذلك تنكّرت لكل الفرضيات والمسلمات وقالت: هيا. .

ابن السنة كان، وابن العشرين ولا أثر. أخبروه في الأول أنها ماتت. كانت المدينة المحافظة تنتقم ممن يتركها، يشده تيهه نحو داخله ونحو الأفق، لذلك حكمت عليها دون أن تحاكمها: لقد ماتت.

غير أن بقيةً مِن صِدقٍ كان ينفلت من قلة من الأفواه: أمك يا ولدي امرأة لا تقنع بالمتداول، لقد كان بصرها أكبر من سياج الحي وحدود المدينة، لذلك تعذبت كثيراً باغترابها وأَلَقِها، فهاجرت.

نسيها حيناً وبكاها أحياناً. لانه كان يتيماً من الداخل، وكل ما كان ينجزه كان نداءً لها، حواراً معها وغضباً عليها: أتتركه وترمي قلبها على أعتاب رجل آخر، ولا تُبقي له منها أيَّة ذكرى. كانت قضيةً وكانت عاراً، لذلك طوى الحنين وأخفى اللوعة وظلَّ يهاجر نحوها عبر اللون والفرشاة: يؤبدها ويلغيها. يستدعيها وينفر منها، حتى إذا أغلق بابه عليها، وجدها في الداخل، جرحاً لا يلتئم.

وكان أبوه بالمقابل يفخر به، ينجز به طموحاً لم يجد فرصته قط، ولكنه لم يسمح له بأن يفتح معه كتاب أمه حتى النهاية. وكان يعذره، أليس هو من تلقى اللطمة الأولى، ولم يكن بإمكانه أن يلزمه بتذكُّر وجعها من جديد. غير أن الوالد كان يقيم بينه وبين يديه عراكاً، فهو حينما يفخر بعطاءات ابنه، كان في الوقت نفسه يهجم على يديه، شكلها بالخصوص، لأنها تـذكّره بيـدي «المحجوبة» تلك التي عرفت كيف تلطمه على وجهه وكرامته بتلك الأصابع الريانة. وكـان يحتار، كيف يرفض المواجهة ويسعى إليها؟ إن القضية هي ما يجب

أن تموت لا المحجوبة بالخصوص، غير أن يديه تعيد القضية إلى السطح، وتحيل أباه شرساً عدوانياً على غير ما ألف.

- أبي، هل ستتشرّف؟

وقبل أن يسأله كان يعرف أنه سيفعل، أليس هو من سيحقق عبره أساه وأمله. وانتشرت على وجهه تباشير فرحة كان يعرف كيف ينضجها، لذلك ضرب على كتفه قبل أن يرد:

- ألن أكون شذوذاً وسط الحضور الشاب يوم افتتاح معرضك يا إسماعيل؟

ولأنهما يعرفان كيف يلتقيان ويبتعدان، فقد ابتسم كل منهما للآخر بتفاهم، وافترقا.

على هامش الفرح على هامش الحزن كان. ولأن الشمس ظلّت تراوده فقد ابتسم، بينما كان الشارع نفسه يتحرك، يترك الأرجل والعجلات تنساب على سطحه بلا ضجة، حتى لكان هموداً شاعرياً قد زار المنطقة، ولقد كان بطبعه مهيأً للسلم مهيأً للحرب، يقيم مع الأشياء والموجودات علاقات جدلية، يعطيها ويأخذ منها بصخب

مرة وبهمس مراراً. وحينما رمى نظرة فاحصة نهائية على معرضه الذي سيفتحه بعد جزء من زمن، تأكَّد من أنه مع عدد من رسامي جيله، يحاول بجهد، أن يؤسس صيغة فنية متميزة، ذات بصمات قومية وبُعدٍ إنساني، إنما تبقى اللوحات الأخرى، تلك التي يسيل جرح الأوعية عبر خطوطها وألوانها، باحثاً فيها وعنها، محاولاً إبعادها وعناقها في آن.

خرج من قاعة العرض، ونزل الدرج وسار في الطريق الموازي، حيث كانت أبواب الدكاكين المفتوحة تعطي فراغات مملوءة بما هو مهيأ للعرض والطلب. وعند مدخل مقهى توقّف، كان عليه أن يحتك بالأصوات والصدى وانسياب الارتشاف. إن فيه ما هو مهيأ للاستقبال والنفور. ولأنه كذلك، فقد ظلَّ واقفاً على مشرب المقهى يحتسي مشروبه بمهل، ويغرس نظره حيناً في الخارج وحيناً في الداخل، محاولاً البحث عن توازن ما. وبالمقابل كان العالم يجري، يقف عند محطات مؤقتة قبل أن يتابع، وكانت الساعة الرابعة والنصف تقريباً، وفتاتان تسيران بلا استعجال، بينما الآخرون

يسرعون، في حين كان لغط القاعدين والواقفين يصدح، بينما الشمسيات مجتمعة على نفسها في زاوية. وخرج.

وفي الطريق، كان يحس أنه مُقبلٌ على صراع ما، فَكَسْبُ رأي الآخرين ورضاهم هل يفرض عراكاً هامشياً أو اساسيا؟ هكذا تساءل. ثم أجاب: لست أدري. وعند المدخل رأى تجمعهم، وكان في الطرف القصيِّ والدُه، مجللاً بوقار شخصي يتضامن معه وينفر منه. وعند الوقت دخل في الجمع ودخل في الحالة، لقد كان صاحب العرض وصاحب الدعوة، لهذا لبس لبوسها ليمثله حسب رضى الآخرين: موقتاً. ثم أخذ يقدّم ويشرح، وبين الحين والحين، يقمع ذلك الشريد فيه، الغير المؤطر بمعرض أو لوحة أو تجمّع. وعلى حين، دخل في التشكيل نفسه، أصبح جزءاً من الخط واللون وتحرُّكِ الحاضرين وبسماتهم ورضاهم ووقفة أبيه في البعيد: لقد كان آنذاك صاحب المعرض بالضبط، لذلك استطاع أن يرد لهم بسماتهم وهم يتحولون إلى المشرب، لكن وهم يقرعون نخب العطاء المبكر، استيقظ، أحس وهْمَ اللعبة ومجانيتها، ولكنه لم يستطع أن ينسحب:

ـ هناك من يطلبك.

استدار جهة اليسار منصتاً لمن يخبره. فأعـاد له الصوت:

ـ هناك من يطلبك عند المدخل.

كان كأنه قد ساعده بهذا المخرج على استعـادة انتمائه، والواقع أنه لا يصلح أن يكون متحفياً مؤطرا، لانه يحس مرة أنه يختزل عدة أشخاص في واحد، ومراراً أنه دون أن يكون أحداً. ونزل الدرج بسرعة، وهو يتبع من أخبره، وعند الباب رمى عينيه باحثاً، فتقدمت هي وهو، امرأة ورجل، بتوأدة حيية، وحين أخذ ينظر إليهما مستفهماً، أمسكت المرأة بكلتا يديه وأخـذت تقبلهما. من؟ نفض رأسه وحاول أن يمسك بأي توازن ليواجه الجديد. وحينما غرس عينيه فيها قالت بتلعثم خجول:

ـ أنا.. أنا أمك.

حملق فيها برهة دون أن يراها، ثم نزع يديه منه وأمسك رأسه. وكانت تثقله ثلاثون سنة من الغربة واليتم،

ثم حاول أن يدعمه لعلَّه يستوعب أو يفهم، ولكن الواقع والحدث وهاته الأم العائدة، كانت أشد ثقلاً عليه. وأخذت الأرض تناديه وهو يقاوم السقوط، إنما ذلك الدوار اللعين أخذ يتلاعب بالعالم الصغير المحيط به، وحينما أعاد الإمساك برأسه بقوة كاد أن يصيح، أن يبكي، أن يحطم، ولكنه لم يفعل سوى أن هربَ منها، من زوجها، ومن غياب السنين الثلاثين.

وظلَّ يجري، يجري منها وإليها، في حالة هستيرية، يتلقى العالم والوجوه واللوحات والأسماء والأيام والليالي والعمر المديد، يرفض البحث عنها ويتبع نَسَقَهُ، يعتقد أنها ستعيد البحث عنه، ستكون منتظرة له في زاوية أو مدينة أو حلم، دون أن يستطيع أن يكمِّل هذا الخداع أو يتحرر منه.

وظلَّ من بعد، يفعل أشياء كثيرة.. يشارك الآخرين، ويبني ويهدم، يقترب من والده ويبتعد، يسأل النساء العابرات في حياته والأساسيات، يعمق حسه بأنه هو الآن من ضيعها لا هي، فيهرع إلى مرسمه ليفصّلها جزءاً

جزءاً، عضلاتٍ ونفساً، لتبقى هدفــاً لـه ومسعى: الأرض الحضن البدء والنهاية.

وسار.. وفي السير كانت القضية وكـان الوطن، وبذلك تعددت المحطات، استراحةً ومنطلقاً، وحقّق قفزات نوعية ودلالية، سواء في الرسم أو السينما أو المسرح، وكان التغيير هاجسه ولوعته..

وظل الشارع في مواجهة المقهى، يستقبل المارة ويودعهم، وكانت الحافلة في محطة الـوقوف تنفث دخاناً، بينما بائع الجرائد والمجلات يرتبها ليرمم الأماكن الفارغة، في حين كانت واجهة الدكاكين مملوءة بمعروضات نسائية صرفة، وكانت درج المسرح البلدي هي هي، فاتحة نفسها للعرض لا للطلب، بينما هم، ياسين، وسعيـد، واسماعيـل، وعبـده، على مـائـدة المقهى يتناقشون حول المسرح والمسرحية التي ستعرض في انتظار وقت الدخول. وكان هدير الشارع والسيارات والحافلة ورنين الكؤوس والرشفات يتخلل ما يسمعه:

ـ مسرحنا غير مسرح الفراعنة والآشوريين واليونانيين

والغربيين حالياً، لأنه إفراز لظروف اجتماعية وسياسية وثقافية واقتصادية مغايرة.

- الفن، ومنه المسرح، له قواعد، لكنها متغيرة بتغير الحياة.

- المسرح محاولة هامة لتحقيق ذاتية الإنسان، كما أنه تقليد يومي للإنسان.

- المسألة انها أزمة مصطلح

- المسرح في إطاره الديني والاجتماعي والفني.

- وتدخّل هو بصفته من أنجز الديكور للمسرحية التي ستعرض، حيث قال: المسرح فن وعلم وصناعة، إنه عمل مركب وترسبات معرفية ولغة للجسد ومستوى في التعبير وتجارب مع الشعب وقضاياه.

ثم وضع كأسه، وأرخى من جديد سمعه لنبض الشارع وتنفسه، في حين تمطّى ياسين ووقف: علينا أن نذهب، بينما التحق هو وسعيد بقاعة العرض.

كان المسرح هاته الليلة على غير عادته، ذلك أَنّ

لكاتب المسرحية والقضايا التي يتناولها، وكيف يطرحها ويعالجها، بالإضافة إلى أنها تمس في المشاهد حزنه الموضوعي وثوقه التليد، حيث يلتحم الحزنان في تحريض منطقي، لهذا امتلأت القاعة وانشدت الأعناق.

وكان في قعدته، يجالس سعيداً ويرسل بصره وسمعه، بينما القاعة مثقلة بهذا الهجوم المتقن على خصوصيات الفرد واحتياجات الجموع، وكان هو، يزيد في حمولة النص دلالة ومعنى وعلاقة بالواقع.

واهتزَّت القاعة، كان الستار قد انسدل، وأخذ التصفيق يهنىء، فشارك المشاهدين في تصفيقهم ووقف. وكان سعيد في المواجهة، وحينما مد قامته ليتحرر من الجمهور ويندمج فيه، حيث يرحل بعضهم اتجاه المشرب أو اللقاء ببعضهم من أجل نقاش، كان هو يقول لسعيد:

- أترى أن المسرح يعزل الإنسان عن محيطه ويحاصره به في آن ثم تنفس بعمق. آنذاك كان هناك من ينادي بهدوء:

- إسماعيل، إسماعيل؟

فاستدار.

- التحق بباب المسرح، فهناك من ينتظَرك.

سار خطوة، وسأل:

- من يكون؟

- إنها أمك.

أمه. صورة الوهم وتركيب الحقيقة. وتذكّر ما تبقى له منها منذ لقاء وحيد مرَّت عليه عشر سنوات إلى الآن.

اليدان، فهما ما أبقته وما يتذكرهُ. ترى كيف أنها تمطر دون موسم، أمه. وامتدت الرؤوس أمامه غابة استوائية. وكان عليه أن يقطعها ليلتقي بها. بالمرأة التي دفعته للتيار ثم ترمي له بين حينٍ وزمنٍ قشةَ أو خيطَ عنكبوت.

اصطدم بأكتاف وأخرى، وكان يسرع وسط الزحام. إنها هي هي، حريته وقيدهُ، وفي باب قاعة العرض كان الزحام أكثر، بحثَ عن المخرج الآخر فوجدهُ هو أيضاً مكتظاً، تحايل من ناحية الجانب، وحشر جسده ودفع، لقد كانوا كلهم في حصاره، قدرهم أو قدره، وانسلَّ

وانسلّ، بمهَلٍ وبعنف. . وكانت هي هنالك على القرب، يخاف قربها ويخاف بعادها، خصوصاً وأنها غابت العشر سنين الإضافية بعد اللقاء الوحيد دون أن تبحث مرةً أخرى، أو تعطي عنواناً أو ترسل سؤالاً، فأي النساء هي، بقلب حي أم بآخر شارد؟ لكن المهم الآن أن يقطع فسحة المخرج ويحتال للخروج من الأبواب التي تجمَّع عليها من يأخذ بطاقة مؤقتة للخروج.

ضرب هنا وضرب هناك، وكاد أن يصيح بهم: ارحموا مفصولاً قد وجد انتماءه اللحظة، وكانت عيناه تقطع الرؤوس والأكتاف والأصوات والضجيج العليل. وحين تناول ورقة الخروج المؤقت واندفع، كان ثدي أمه عند الباب، وهو من سيستعيد به تجذّره في رحم عطوف، يلتف به ويحتمي ويتخلص من اليتم ولو تبعها على كفيه. . وخرج. . .

وكانت عيناه تزرعان الوجوه والأرض والبلاطات وكل واقف أو مار:

لقد ذهبت

حوار الصم

- مسيو روبير، أما كان الأولى أن نطلب موعداً؟

قلص مسيو روبير نظرته ودمدم، فلم يلتقط أحمد من دمدمته شيئاً، ولكنه كالعادة، يحترس من هاته الدمدمة ويفهمها. لهذا صمت.

وقفت السيارة عند باب المؤسسة وترجلا.

- نريد مقابلـة السيدة المديرة؟

ولأنها رهن إشارة العابرين والطارقين والمستفسرين، أجابت:

- أهلاً.

كان المسيو روبير في مقدمة الزائرين، وكان أنفه

الطويل في مقدمة وجهه، وكان تاريخ قارة في مقدمة هيئته، وكانت يده في مقدمة الأيدي المحيية.

- تفضلوا.

وأشارت بالجلوس. وجلسوا. فرمت النظر. كان المسيو روبير يحتل المقعد بأكمله، بينما في مواجهته يجلس أحمد على حافة المقعد الآخر. وتحدث:

- سيدتي، يريد المسيو روبير أن يحدثك في أمر.

واستوت في جلستها بعد أن وضعت القلم الذي كان ما زال بيدها؟

- مرحباً.

وقبل أن تتم، كان المسيو روبير يسأل:

- لماذا لم تسلموا للطالبة رحمة المغزاري ملف المنحة؟!

أتراه يهاجم؟..

•

وتذكرت الجد وهو يحكي:

«لقد استغلوا سذاجتنا وجهلنا يا ابنتي، الأطماع

الأوربية هي ما فعلت بنا ذلك، حينما كانت تعرض علينا حمايتها، وكان أصحاب الأموال يخافون على أرصدتهم ويريدون أن يهربوا من تحت أيدي السلطة «المخزن» بالاحتماء بالدخيل الأجنبي، ولم نفهم أن ذلك هو الاستعمار في صورته تلك، قبل الاستعمار الواضح».

•

واستقامت:

- قبل أن أجيبك يا مسيو روبير، أسألك السماح لي بشكرك على أتعابك في سبيل طالبة مغربية، حتى كلفت نفسك هذا العناء وهاته اللغة وهذا الطرح.

ولم يتركها تتم، كان يشعل لفافة، وحين أخرج دخانها من بين أسنانه قال:

- إنها ابنة «فاطمة» خادمتي في البيت.

وتلاطم المكان ببعضه. وكان عليها أن تبذل جهداً لترد الجدران إلى أسسها، ولتقيم السقف فوقها ولتتنفس، وردت بهزء:

- تشرفنا!

آنذاك حاول أحمد، أن يُدخل نسمة:

- لو سمحت يا سيدتي، فإنها يتيمة، وهو يريد أن يساعدها.

●

وأضاف الجد: «كانوا في الأول يخاطبوننا بلغة المساعدة، بلهجة العطف والأبوّة، ومن ثم كانوا يفتحون لنا باباً ويغلقون أبواباً. بينما يشرعون في وجه الوطن كل الأنياب والأشداق المكشرة»

●

- إنني أفهمك يا سيد أحمد، إنما أريد أن أستفسر السيد روبير، بأي حق يسألني بهذا التعالي المريض؟!

تململ أحمد في مقعده، وكان المسيو روبير يغضن جبهته ويرد:

- أليس من حقها أن تأخذ منحة، وأليس من حقي أن أطالب لها بذلك؟

●

وقال الخال: «كنا قد وعينا قضيتنا، وما كان أمامنا بعد، سوى دفع الثمن ضد المستعمر لاسترداد هذه الحقوق، وكنت من جملة من بدأوا، ولهذا كان الأداء قاسياً: الحكم بالإعدام الذي تحول إلى السجن المؤبد، حيث

لم أغادره إلاَّ بعد الاستقلال الجزئي للوطن الحبيب».

●

عبر وجهها استهزاء واضح:

- أيَّة حقوق وأيَّة أدوار تريد أن تمثلها يا مسيو روبير؟! فهل لي أن أسألك بدوري، وأظن أن من الحق معي ما ليس معك، فهل ليست «فاطمة» مواطنتي دون أن تكون «رحمة» مواطنتك، أن أسألك، هل «فاطمة» تأخذ كل حقوقها منك؟.

احمرّ وجه مسيو روبير وارتعشت يده وهي تسير بالسيجارة إلى المنفضة:

- ليس هذا من حقك أيتها السيدة كما أرى.

ولكنها لم تمهله، إذ أجابت:

- إذن فأي حق يا مسيو روبير، تكون «فاطمة» ابنة هذا البلد، خادمة في بيتك أنت الغريب عنه؟!..

●

وتذكرت أخاها:

«إننا لا زلنا نتابع النضال، لقد تغيرت الشروط وأسماء المواجهة، ولكن الخصم هو هو: الاستبداد

الخارجي أو الداخلي، ذلك الذي يحافظ على البنيات الاقتصادية والاجتماعية على ما هي عليه، لأن تغييرها يكون لصالح رد الأسماء لمسمياتها، وهذا ما ليس في صالحه».

•

وسمعت السيد أحمد:

- سيدتي، أرجوك، لا نريد منك سوى توضيح بسيط لو سمحت.

وكان تضامن صغير قد انعقد بينهما في السر. لكن هل كانت ستضع خوفه على وظيفه في حسابها؟!..

وكان الفساد العام والخاص هو ما يجعل هاته العلاقة الغير الصحية تعكسها هاته الجلسة، لهذا أسعفته:

- المسألة بسيطة يا سيد أحمد، إن الوزارة قد قررت عدم السماح بالمنحة سوى لغير القاطنين بالمدينة. إنها مسألة أسبقيات مع ذلك لا أدافع عن هذا الإجراء، لكنني هنا لا أملك لك جواباً آخر.

•

وتذكرت يفاعتها:

«مزقت دفاتر اللغة الفرنسية وهي تغيظ مدام «كريف»

التي كانت من الألوية السوداء، وهي تواجهها: لم أتعلم بعض هذه الجمل من الفرنسية سوى لأحدثك عن عبد الناصر، إذ أريد أن أقول لك من هو، عكس ما تقوله لكم وسائلكم الإعلامية الحقودة.

وحملت مدام كرييف التي كانت صهيونية متجنسة بالجنسية الفرنسية، حقيبتها وخرجت إلى مكتب المديرة «مدام فاران»:

- إما أنا أو هاته الطالبة، لن تسعنا هاته المؤسسة نحن الاثنتين.

ولأن الطالبات أضربن عن الأكل في الغذاء، وكسرن الأواني وأتلفن بعض المقاعد، فقد غيرت مدام كرييف المؤسسة حتى آخر السنة حيث رحلت إلى الجزائر، بينما كان عقابها هي من طرف المديرة:

لأنها الطالبة الأولى، ولأنها المشاغبة الأولى، فإنها تحرم من كل الجوائز، وعلى رأسها الرحلة إلى فرنسا التي تبرع بها السيد سفير فرنسا للطالبة الأولى..».

•

وأضافت:

- ان ما يثير يا مسيو روبير، أنك تريد أن ترجع بتاريخ هذا الوطن ربع قرن إلى الخلف، كأنك من أهل الكهف، لم تستيقظ إلاَّ حينه، وضحكت.

فتجاهل تعريضها أو لم يفهمه حين قال:

- لكن بأي حق تفعل الوزارة هذا؟

وأجابته:

- بالحقوق التي كان يجب أن تكون لهذا الوطن ولم تكن له. بحقه في ألاَّ يراك ولا يسمعك ومع ذلك يحدث. بالواجبات التي على قادته وشعبه في امتلاك كل ثرواته واستخدامها لصالح «فاطمة» وكل «فاطمة» ولم يفعل بعد.

•

وجاءها صوت صديقها :

«وكل السجون سندخلها، ما دام السجن هو مفتاح تغيير الواقع في هذا الوطن، هو السبيل لتحقيق استقلاله الحق، حتى لا تظل الامبرالية وخدامها يحتكرونه ويوزعونه بينهم كتركة بالية...»

•

ولأن المسيو روبير يقول ما يشاء دون ترابط، لهذا أضاف:

- أليس من حقها أن تأكل؟

كان هذا هو السؤال الوجيه والوحيد الذي طرحه. وكان المنطق ألاَّ يأتي منه هو؟ وكان عليه أن يفهم من هو ومن يمثل، لهذا احتفظت بالسؤال واستخدمته:

- نعم من حقها ذلك، ومن حقنا كذلك يا مسيو روبير أن نأكل.. من حق هذا الشعب الذي يطعمك حينما يقدم لك ولأمثالك خير زاده، ويترك له ولنا الفتات، هذا الذي لا يكفينا.. ألا ترى معي أن اللعبة متقنة بين ما تمثله أنت وبين أغلب ما ينفذ داخليا؟!

كان أحمد يحني رأسه بفهم، وكان ألم ساحق يملأ وجهه، ومع ذلك انتظرت منه موقفاً، لكن أليس الأخطبوط قد جعل منه ومني ومن أمثالنا عبيد اللقمة والكرسي والحوالة والواجهة الأنيقة؟.

●

وأضاف صوت الصديق:

«إن نشر الوعي هو الوسيلة الأولى للبدء. وهذا هو واجبكم قبل أن تلحقوا بنا داخل السجن بنوعيه: الصغير والكبير».

●

وصاح مسيو روبير في صمت أحمد:

ـ أتسمع ما تقول: إنها تمسح بي الأرض ولا تتكلم.

رفع أحمد بصره وكان حقد صغير هاته المرة يسكنه، لهذا عالجته:

ـ إنه يا مسيو روبير جائع بشكل آخر، إلى الخبز أو الكرامة: لقد سرقتموهما ولا زلتم تفعلون مع زبانية معكم من لصوص هذا الوطن، لهذا لن أتعجب حينما لم أسمعك تسأل: من سرق خبز هذا الوطن ودمه حتى تركتم «رحمة» و«فاطمة» وكل «فاطمات» هاته الأرض في العراء: قارتكم يا مسيو روبير: اسألها من أين مولت نهضتها التقنية والصناعية. أليست من ثراء هاته القارة المهدورة يا مسيو روبير؟!.

ـ أيتها السيدة المديرة إنني لا أسمح لك بـ...

ولكنها لم تكن لتستأذنه:

ـ . . وأنتم لا زلتم تفعلون، تتواطأون مع اللصوص الكبار، حيث لم تكتفوا بسرقة المواد، ولكنكم تودون وإياهم حتى سرقة الحركة، حتى اغتيال المخاض، حتى قتل الغد. .

ـ أحمد؟!

وكان غيظ كبير في صيحته، غير أن أحمد لم يجبه فأمر:

ـ يجب أن نذهب.

فأتى آنذاك صوت أحمد، قاسياً واعداً، مفجراً لكل صلد:

ـ لك أن تذهب يا مسيو روبير، أما أنا فلن أذهب معك، إن لي طريقاً أخرى كما أصبحت أفهم.

وحينما خرج، كان يضرب الأرض بالخطى ويسمع الصدى، بينما يُعمِّق نظره في السطح وينصت.

●

وقال الجد:

«وكرامة الأرض من كرامة الشعب . . . ولا كرامة يا أبنائي دون الدفع العتيد. .»

الاستثناء الراجح

الرنين :

وحينما صدح عبر الممر وعبْر الساحة، كانت الأرجل تتحرك، تلك التي انطلقت من كل الأقاليم في اتجاه القاعة، وجاءت تحكي وتسمع، وتؤكد حضوراً سواء للمعنى أو لعدمه، وكان البعض فيها يحني هامته تحت ثقل الاستفسار واللاّجدوى، بينما الأغلبية تبتسم للفرصة السانحة.

سارت الأقدام أمام الجدار المقابل، ذلك الذي يحمل عراقة ماضٍ قديم، تَنْبُتُ على أعاليه بعض الأعشاب المخضرة، بينما تنسفح على حوافيه خطوط ملونة، تحكي زمناً يبحث عن التجدد.

وفي الداخل، داخل القاعة، كانت قفا المقاعد تنادي. واستفهم أحدهم: أليست هذه قاعة لعرض مسرحية جل أبطالها ملفقون؟!.

وكان هو يسير خبباً، يرفع نظرة ويسبل أخرى، يحاور ذهنه والجمع ويقول لها بعد التحية:

ـ لماذا لم تحضري في الاجتماع السابق؟!

ولو أنها كانت لا تعرفه، هشام، لا تدرك استماتته من أجل مقاومة الانحراف، من أجل كشف الواقع في تشابكه الغير البريء، لتحديد المبادىء وتحقيقها، لكانت قد ابتسمت بهزء. ولأنها لم تفعل، فقد أتقن صوته حياده، وهذا هو الجديد الذي عليها ألَّا تنخدع به.

انحشرت بين الجموع، وكان همود مؤقت مستفسر يعم المشهد، بينما لا زالت الأيدي تلتقي ببعضها، فيحي بذلك الجنوب الشمال، والشرق الغرب، ويكون ذلك هو الوطن..

الشارع:

أزاح قفة اللفت، ثم أمال فمها وأفرغها، بينما كان الجزر متراكماً في الجانب الآخر مع قليل من اللوبياء والليمون والبطاطس. وحين ضرب كفيه كتحية للرزق المنتظر، استفسره أحمد:

- أتشرب شاياً؟

كان ذلك التجانس الذي يربط صف الباعة المتراصين في الساحة الملحقة بالسوق المركزي للخضر، هو زادهم وسلاحهم. ولأنهم لازالوا أبناء قراهم، فقد كانت اللقمة والجرعة تُقسم مناصفةً، رغم عربدة الحسد والحنق والمشاجرات الغير الرسمية. تناول كأس شاي وتجرع منه جرعة، وحين طقطق شفتيه تلذذاً، باغته أحمد:

- أراك اليوم في عزك، لك الحق، فمن أين ذلك بكل هاته الخضر اليوم؟.

صدحت ضحكة مسعود قبل أن يُقرِّب الشاي من فمه ثانية:

ـ ذلك شغلي. ثم أضاف بعد أن فرك يديه ببعضهما، فَبِهِ أريد اليوم أن أنتقم من عدم مدخول الأسبوع كله، فَمَا رأيك؟.

ولأنهم لا يعـرفـون أحياناً الحد الفاصل بين الجد والهزل، بين المحبة والقسوة، بين الخاص والعام، فقد أكلها أحمد على رأسه وسكت، خصوصا حينما وقف أمامه بّ محمد محييا.

أكمل مسعود شرب الشاي، وهو يرمي عينيه على رزق اليوم الذي يرهنه لربح ضئيل قد ضاع، وكلما رأى كتلة صغيرة من الخضر تتوزع خارج حدودها، مدَّ أصابعه ليعيـدها لصف أخواتها، فهو يجد في ذلك نوعاً من الراحة، ممارسة خاصة يصففها ويتلذذ بها. وبعد أن أكمل، رمى بصره صوب السوق، ولم يُحْنِهِ، بل تركه برهة كأنه في انتظار... آنذاك تذكر جاره أحمد، فقام ورد له كأس الشاي شاكراً، وضرب على كتفه:

ـ مالك ساكت. أتكون قد قلقت؟

ابتسم أحمد وهو يرمي قطعة من خيش على صندوق

خشبي قبل أن يجلس عليه، ثم رد على مسعود:

ـ توكل على الله، والتحق برزقك.

فتمطط مسعود بتثاقل وسار بمهل.

أما اليوم، فلم يتمهل، فهو دائماً في ترحال، يعبرُ الأمكنة والأشخاص والسلع والأسواق كعدم. . . يمخرها ويتركها في الخلف: صدى أو نتانة أو تاريخاً مشوّهاً.

وكان الباب، باب السوق مَرْكَزاً ورجاء، لكن أينهم: المشترون؟، أولئك الذين تنتظرهم هاته الوجوه المدبوغة بالشمس والخصاصة، غير أن خبراً تسرب: الطريق مقطوعة، ذلك أن مسؤولاً كبيراً سيمر.

وصاح مسعود:

ـ ولكن من أين سأدفع ثمن الخضر التي استلفتها فحسب، لأدفع ثمنها بعد بيعها؟!

فرد أحمد بنفس الخيبة:

ـ ذلك أمرك.

غير أن حزناً وثيقاً يتضخم أكثر بين صفوف الباعة المنتظرين.

الصوت:

القيادة، ألم تتخل في نظرك عن المبادىء، حينما انحرفت عن اختيارات القاعدة، إن تلك الميلودراما التي توهم باستشارة الجماهير، لم تكن سوى لعبة تمويهية، فمن الأول، هم سائرون وقابلون لللعبة ،تلك التي تجعل الاستغلال بينهم مناصفة، خصوصاً وأن الظرف السياسي في المنطقة يعطيهم أمل الكسب على حساب المصالح الملحة للجماهير. ثم خبط يده على جانب المقعد وكان سخطه يعم، في انتظار أن يشمل القاعة والمبنى والمشروع المنتظر.

الشارع:

كان يجر العربة ويرمي البصر، أما الهلع فقد كان يسكنه ويسكن محيطه، فبالأمس فقط، خرج من مركز الشرطة، بعد أن استولوا على عربته الصغيرة وما فيها كبائع متجول، وكان يسأل نفسه بخوف: ترى كيف يكون

حالي لو أنهم ألقوا القبض عليّ من جديد؟.

ثم اختار الدروب الضيقة كمهرب، وسار..

الصوت:

عاد من المطبخ ووضع على المائدة صحن العشاء، وهو يتابع الحديث مع هشام:

- معك الحق، فلطالما وجهت سؤالك هذا لنفسي: أترى أن موقفي هنالك أو هنا؟ في تلك الهيئة أو هاته؟!..

جلس ووزع الخبز، ولم يمد يده لبدء الأكل، بل تابع:

- لا نحتاج إلى شرح ما هو بدهي، تعرفه أنت وأنا وغيرنا، ذلك هو انعدام الديموقراطية حتى في الهيئات التي تدّعي التقدمية، عليك أن تطيع لا أن تناقش، وإلاَّ اتُّهمتَ بكذا وكذا من التهم.. أو سُلِّمتَ بإشارة ذكية للمكتب الثاني..

انتبه إلى أن العشاء سيبرد، فاعتذر:

- لنأكل أولاً، فهذا جيل قد أنتج من الكلام فحسب،

ما يغني الجيل الذي بعده عن تحريك شفتيه، مع أننا لم نقل شيئاً مجدياً على الإطلاق.

ثم شرعا في الأكل، وفي بدئه مدحه هشام:

- يظهر أنك ستصبح طباخاً جيداً؟.

فرد عليه وهو يبتسم:

- الحاجة، الحاجة يا أخي.

وكان هشام، مستعجلاً لمتابعة الحديث، لذلك عرَّج به حتى جعله يتكلم كمن يشكو:

- أولئك يضعونك في الواجهة: يسار ما يسار، تطرُّف ما تطرُّف، لتصطادك المخابرات بسهولة، أما هؤلاء؟، أتدري، لقد غيروا مكتبي بآخر، وقهقه، لقد جعلوه ملاصقاً لمراحيض الإدارة.

وحين تفرست عيون هشام فيه بأسى، كان هو يزيل الإحباط الذي كاد أن ينزل بالجلسة والعشاء والحديث الشاكي:

- مع ذلك، فعلى كل أن يناضل في ساحته، ضمن

المجموعة التي هو فيها وضدها، يحرك قاعدتها وفق الاختيارات الأساس، في تنسيق طبعاً مع الشرائح المماثلة في الهيئات الأخرى، حتى يعم الخط وينتشر في كل المؤسسات الشعبية.

الشارع:

- إفتح، إفتح يا بوشتى.

وبما أن بوشتى لم يسمعه، فقد رفع صوته ونادى؟

- بوشتى، إفتح، ألن تسمع؟.

كان واقفاً بجانب دراجة نارية بالية عند باب المدرسة، ولأنها قد أُغلقت بعد وقت الدخول، فقد كان بوشتى يشذّب بعض الأعراش في بُعد قريب، لهذا لم يسمعه في الأول، لكن ما أن ارتفع صوته أكثر حتى تنبه، وأسرع إلى الباب:

الأستاذ عزيز.. مالك؟

ولم يجبه ولو بعد فتح الباب إلاَّ بعد حين:

- جئت متأخراً، ذلك أنني بعت سيارتي، حتى أؤدي

كراء الشقة التي حكمت المحكمة عليّ بالأداء أو السجن، وقد استلفت هاته الدراجة من البقال الذي في أسفل العمارة التي أسكن بها، ولكنها تعطلت نهائياً وأنا آت. .

انحنى رأس حارس الباب وهو يقول بهمس:

- لسنا وحدنا من يتعذب، إنهم حتى هم، الموظفون الصغار والأساتذة.

القاعة:

أيها السادة والسيدات. . .

واستمر يشرح ويبرر، ثم يحاول أن يقنع. وكانت القاعة قد سقطت في الصمت المتواطىء، ذلك أن أغلبية مَن فيها يملك حسابه الخاص، ولأنه يقدم لهم مَعْبَراً غير متين، لذلك فَهُمْ، بل أغلبهم، يجعلونه مع أنفسهم صلباً وصالحاً، خصوصاً وأن المنطقة تعرف هجوماً وعدواناً يقتضي منا أن نَمُدَّ فيه الأيدي حتى للشيطان، فالذنب على من رمونا في حرب لم نخترها. .

حرك الشخص الذي بجانبها مقعده، فعادت من الشارع، فقد كانت هنالك وراء الجدران. . مع المتعبين الباحثين عن زاوية وكرامة، عن كرسي في مدرسة، عن مدخول يوفر اللقمة، عن مستوصف لا يسرق الأدوية ويبيع الفحص، عن إدارة لا تسحب منك إنسانيتك وجيوبك، عن توزيع شبه عادل للدخل الوطني، عن تهيء الفرص لكل السواعد لتبني هذه الأرض، عن أبجدية جديدة للإسم الأول، عن نصر ساحق لكل الهزائم المتوالدة، عن هوية صلبة وصامدة لهذا الوطن الكبير المغتصب. . .

ولأن القاعة ديكور متقن، فقد رجعت بذهنها من الشارع، كان دخان السجائر يمرح مع الهمهمات، أما هو، هشام، فقد كان يرمي النظر إليها باستعجال، تساءلت: ما تراه يخفي؟ ففي السابق كانا مع آخرين يعقدون جلسات خاصة، في زاوية الساحة أو في صدر الممر أو أي مكان آخر. لتصحيح اللغة والمخطط. . .

لكن ما كانت تريد منه اليوم هو أن يتكلم، أن يسأل

الأسئلة الجوهرية في الموضوع: فمن تراه قد أنام هاته القضية الوطنية حتى اليوم؟ ولحساب مَن قد أُنيمت سابقا؟، ولحساب مَن قد أوقظت حالياً؟! ثم أين هي التعبئة الشعبية لخوض معركة وطنية، وذلك حتى لا نفتح الباب في وجه الاستعمار الجديد لنكون قد أغلقنا في وجهه النافذة فحسب؟. ثمَّ ولكي ينجح كل ذلك، فيجب خوض معارك أشد وأقسى: معركة شد الأحزمة على البطون المتخمة. لا على البطون الغائرة، والإسراع بخوض معركة التنمية التي يجب أن تسير جنباً إلى جنب مع معارك استرجاع أجزاء الوطن.. إلخ..

وحين انتبهت، وجدته لم يتكلم، فتأكدت من أنه يكاد يصبح شخصاً آخر، لكنه من هو؟؟.

الشارع:

- ابتعد أنت، ألا تسمع؟ ثم خبط على ظهره بعصى في يده. تحمَّلها المسكين، وجمع كتفيه حول عنقه، وانزاح قليلاً، ولم يذهب، لذلك ازداد صياح الشرطي:

ـ أبناء الكلب، كأن لا جلود لكم تخافون عليها.

قال ذلك وخبط على آخر بتعب يوم كان عليه طيلته أن ينظم فيه المتزاحمين على الباب من أجل التسجيل في لوائح البحث عن عمل..

الصوت:

قلنا لهم.. ولم يتابع، بل تنهد ثم تمتم: يا ما قلنا وما نفع ما قلنا. كان هشام ممسكاً بشباك النافذة بيد، بينما الأخرى تمسك بجريدة قد انتهى من قراءتها:

ـ أليس من المسلمات، بناء ديموقراطية حقيقية، إذا كنا نريد أن ندفع بهذا الشعب لخوض معركة حقيقية على عدة جبهات، لا أن نقدم له التزييف في طبق من كلام معسول.

رد عليه علي هازاً رأسه بالإيجاب، وهو يضيف:

ـ تلك كانت معركتنا أيضاً في هيئتنا السياسية. ولكن...

ترك النافذة، وهو يتابع:

ـ أتعرف ما كان جوابهم؟ الوطن في خطر، علينا أن نمد له اليد في اللحظات الحرجة.

وسار في الفسحة، ثم تابع: لكن، أين الضمانات؟ ما هي الضمانات التي طالبوا بها أو أعطيت لهم؟! لا شيء، سوى أنهم أسبلوا نوعاً من الشرعية على ما هو غير شرعي، وبذلك فهم يؤدّون دوراً غير تاريخي: ترميم ما لا يرمم وكفى.

ثمَّ سحق بقية سيجارته بعنف في المنفضة، وظلَّ واقفاً..

صداه:

يا دهور الاستعباد أَمَا آن لَكِ أن تنهزمي. الزيف من الأنظمة شيء، لكن حتى من قيادات أغلب المؤسسات!.. وبطلٌ هو غائب إلى الآن لن يكون إلاَّ تزكية للعتمة. والثمن ضروري للأشياء فبالأحرى لمعناها. وأن تكون مطالباً بالثمن للأنظمة فذلك حتمي، لكن أن تدفعها حتى للهيئات السياسية فهو العار. وشعوب ركنت للدعة فلن تكون في ساحاتها غير هيئات

مغشوشة. وظرفٌ تاريخي قد تقلصت حركته، فلن يبدأ الشوط بعد. وأنت يا من يؤمن بالشعب وأداء الثمن له، أين أنت؟.

القاعة:

...... ولأننا لا نملك الأغلبية.

وتنحنح الخطيب قبل أن يتابع:

مع أننا من نجحنا في الوصول بالبلاد إلى هاته التجربة الفريدة في عالمنا العربي، فإننا نحجم أحياناً عن تقديم اقتراحات تتعلق ببرنامجنا الحزبي، أولاً، لمعرفتنا بأنها لن تنجح، إذ إننا لا نملك الأصوات الكافية عند التصويت، ثم لكي لا نجهض التجربة ككل..

وزفرت:

أينك يا شموس الأكوان لكشف الكهوف والمتاجرة التاريخية؟!.

الصوت:

تصور، فبعد مهزلة الانتخابات الإقليمية، وما صاحبها

من ألوان القهر والاضطهاد والتعسفات والمساس بأبسط الحريات الأولية، لم يتراجعوا عن التمادي في اللعبة، لأن المسألة مسألة حسابات وأرباح وبيع وسمسرة.

مشى بعيداً، وكأن تصميماً عنيداً يغلف وقفته..

صداه:

يا تاريخ العبودية لم يبق في عمرك غير يوم. وكل أحابيل السياسة الغير الشعبية تنكشف ألاعيبها لكل ذي رؤية. ومسيرة التاريخ لن تكون إلّا إلى الأمام. وضريبة يؤدّيها شعب لن تكون غير جِسْرِه الأساسي. والمراحيض والسجون حينما تتحول وسيلة للعقاب، فذلك هو البدء.

الشارع:

الغليان، وهو الموقوت.. ثم التفجر المقدس.. ما هو فوق الهيئات السياسية وخارجها.. تعوزه الرؤية والنفس الطويل ولكن يملأه الغضب الجليل.. يندفع أماماً ولا يكون يملك سوى الحقد الوجيه...

المعتقل :

قالت رسالة هشام :

أصبحنا أسياد هذا السجن بعد النضال والإضرابات عن الطعام، لكن مع ذلك يبقى السجن سجناً. هاته الحرب الأهلية بين الطاقات والإمكانات داخل هاته الزنازن، بين الرغبات الحرون والكبت المحرق، بين نداءات الشوارع وحواجز الأسوار، بين توقّف الحركة ومتطلبات التغيير، لكن مع ذلك إن الثمن ثمن داخل الأسوار أو خارجها، لكن كما تعلمين، فكل ثمن لا بد له من بديل.. وكل زرع لا بد أن له من محصول..

الخاتمة :

وتقف هي، فتقف القاعة في الاجتماع الأخير. وكان الرعد قد وصل، وخرجوا.. وظل المكبر يهرف، وكان الشارع والسجون الصغيرة والكبيرة تغلي.. وكانوا سائرين لملاقاته.. وكان الثمن.

فصل لم يكتمل

تمتد الساحة من الجدار إلى الجدار. . وحين تنطلق العين فلا تصل إلى أفق. والشباب اليافع يدخل جامحاً متوتراً. وتسأل: هل نجا؟. فباب الثانوية يصطاد الهمم والغضب والكبت الموروث. لكن الزمن يسيل. . يتدفق برعونة وحسم، يخترق الذوات وقفل بـاب الثانـوية والتاريخ المعطوب.

- أهلاً.

- كانت ترد على تحيته.

وجلس. يفتح باباً ويسد أبواباً. ينقذ الخاص قبل العام، ويخبر:

- اتفقنا في اجتماعنا بالأمس، على الاهتمام بقاعة

الأساتذة: تزيينها وإعادة فرشها.

غرست القلم على رأسه في الورق أمامها، ولم تدعه يكمل:

- إذا كان الأمر كذلك، فلماذا طلبتم مني كجمعية للآباء، أن تقدم الإدارة لكم مقترحات للحاجيات الأساسية. فكما تعلم، فإن قاعة الأساتذة صالحة، ومن الممكن تخصيص ما قد يصرف عليها لإصلاح قاعة الانتظار، خاصة وأننا مقبلون على فصل الشتاء. حتى لا تظل الطالبات في مهب الرياح.

وكانت الرياح الشرقية قد هبت، محملة برمال ولظى، وكانت الأنفاس تحت لفحها، لا زالت لم تسترد بعدُ توازنها: شهيقها وزفيرها النابض، ودافع:

- لست من قرر ذلك، بل..

فأكملت عرضه بتحرش مستور:

- بل الجميع..، ولكن، ألست أنت رئيسهم ولا أحد غيرك، ثم ألست أنت من اتصل بي يطلب الاقتراحات..

ولأنه ليس من أصحاب المعارك الصغيرة، فقد دافع:

- إنني أحاول أن أنفذ مبدءاً أؤمن به.. تحقيق مستوى من الديموقراطية.

الديموقراطية.. يا مرقعة المنطقة سلام عليك في الموت قبل الحياة، فأسمال بالية أصبحت قبل أن تكوني لباساً سوياً.

- تفضل.

كان دقاً خفيفاً على الباب.

وانتبهت العيون الأربعة، بينما بقيت الديموقراطية تنتظر.

- عندي خبر هام للتبليغ، لهذا أعتذر عن...

فرحبت المديرة بالأستاذة المشرفة على مادة التربية البدنية وطلبت منها التفضل دون إحراج، وهي تسألها باهتمام:

- ما هو؟

اقتربت الأستاذة المنسقة من المقعد ولم تجلس، بل أخبرت:

ـ إن الطبيب الذي يجري الفحوص على طالبات أقسام البكالوريا، يطلب منهنَّ 30 درهماً للطالبة.

سقط القلم من يدها وهي تستنكر:

ـ كيف؟

ـ لقد علمت بذلك من الطالبات أنفسهنَّ.

رمت عينيها على السيد الجالس قبالتها، ولم تنتظر منه تعليقاً، بل مدت يدها وصوتها طالبة الممرض، بصفته قديماً في العمل بالثانوية، وفكرت:

إنها المعركة، معركة صغيرة ومعركة وأخرى، وما عليك إلاَّ أن تكون محركها أو ضحيتها، وأممٌ كثيرة كأمتنا همّشتها فأصبحت في آخر الجدول. وبالأمس، خاضتها مع باعة الحشيش بباب الثانوية فانتصروا لأنهم مخبرون، وحتى ذلك الحارس المتطاول انتصر في معركته لأنه مخبر في الإدارة: هم بباب المؤسسة وهو بداخلها. وشعب أصبح جائعوه مخبرين فيه، هو في مرحلة الاحتضار. والتجارة باللقمة ,والمبدإ والأعراض أصبحت عملة عند مختلف الطبقات. لكن أنت؟ أليس عليك أن

تقـاوم. . فزمنُ المسـخ شارتُـه هو زمن الاستشهـاد والشهادة.

وانتبهت:

- لو تسمحين سيادتك لي بالانصراف، فأنا لا أريد أن يعرفوا ممَّن أتاك الخبر.

المخبر بباب الدار وبداخل الذات. والخوف منه علامة على نجاح الخطة، ولو مؤقتاً. وحينما يصبح التجويع والتخويف أداتين للحوار والتعامل والديموقراطية العصرية، فإن الطوفان بالمرصاد. وأنت أيتها السيدة التي تتعاملين مع سطح الواقع دون تفاعلاته السرية يمكنك أن تنسحبي، ثم أفصحت:

- تفضلي، وشكراً.

وكان الحطب في الغسق الفاسي حلُماً وأملاً، مجداً ومعنىً، فَمَنْ يُشعله؟. تتوقد الأسطح والجذور والوجوه العطشى ونهر سبو المسروق، وهذا ألحّت:

- أين هو؟

ثم تطلعت إلى الرئيس، أله ما يقوله، صهيلاً خافتاً على الأقل؟ . . غير أن ذهولاً مباغتاً قد فاجأه، لأنه طبعاً، كالأغلبية، لا يريد أن يكون الضحية، ولو عن قناعة.

أطلَّ الممرض، السيد نور الدين بنفسه. ولم يكن ما ستحادثه به سراً بالنسبة إليه، فمن كان مخبراً، فهو مبالغ، يعطي الخبر للجهة التي تؤدّي له ولعكسها، خصوصاً إذا تكاثروا في المساحة الضيقة.

وقبل أن تفاتحه بشيء، أسرع:

ـ لست أنا. . فلست سوى ممرض.

فردت عليه:

ـ كان عليك أن تخبرنا. . فكما تعلم، فإن هذه سابقة لم يقم بها أي طبيب زائر.

تلعثم ولم يرد، فوجهت الخطاب إلى السيد الرئيس الذي يجالسها، في شكل استفهام:

ـ أليس كذلك؟

فوافق بصوت هامس: ـ نعم نعم.

لهذا أضافت:

ـ وعليه، أرجو أن تطلب من السيد الطبيب التفضل بالحضور إلينا في المكتب هنا.

وعندما انسحب، وقفت وسارت نحو النافذة.. السياج الحديدي، الحائط المرئي والغير المرئي.. في الواقع والنفوس، وتساءلت بلوعة: أيمكن اختراقه.. إحداث ولو ثقب فيه بحجم سم الإبرة؟. ثم استدارت، فرأته لا زال جالساً، على هامش الاجتماع وقاعة الأساتذة والحدث الطري.

انتظرت منه أن يقول شيئاً، أن يشكو أو يأمل أو يثور أو يحلم.. أن يقول لا. لكن الزمن زمن الصقيع.. تُسرق فيه وتُقتل فيه من أجل الآخر ولا يتحرك.. إنه الظلام.. ظلام المدينة والمنعطفات والوراثة والعصور.

وفوجئت بالسيد نور الدين، يحضر ويعلن:

ـ لقد رفض المجيء. إن من أمسك السكين ليقطع أصبعاً أو يداً أو حاسةً أو ظفراً من هذا الجسد الشعبي

فكيف يستحيي؟! إن صولته من عجرفة زمنه: زمن السماسرة والسفلة.

أحست بالمدية تزداد إيلاماً. فالماضي، ماضي المدينة المفعمة بالحسرات والزخم التاريخي والأمجاد الساطعة والجدران الصماء كما هي هنا هي هناك سواء. والسرقات الصغيرة كالسرقات الكبيرة في المدلول. ومن خلال ذلك تلوح فاس جرحاً نادباً في الجسد المغربي.

- هيا بنا.

وحين لم يشرع في الوقوف، أضافت: ألست رئيس جمعية الآباء؟. ثم سارت بمحاذاته، مصغية لإيقاع خطوها الغاضب.

وكان هناك، متوقعاً السؤال، سواء أكان مصيباً أو مخطئاً في نظره، لأن الغنيمة أضحت مباحة في الزمن الرديء.

ووقفوا وجاً لوجه، تكبلهم اللحظة المرتقبة والسؤال المتوقَّع، وكان قد مال بجسده على حافة المكتب واتكأ:

مرَّ السؤال العاصف على حافة السؤال العادي

وانتظر. كان كاللحظة الموقوتة منتظراً: الإشعال، لكن هل زمنه أدبر أو أقبل؟. ولكن البعض من السؤال ظهر:

- هل صحيح أنك تطلب من الطالبات قدراً مالياً عند كل فحص؟.

اختلّت نظرته، واتكأ بيديه على حافة المكتب وأجاب:

- نعم، وماذا في ذلك؟

كان الصوت وقحاً والسحنة مدانة، وكان العصر عصر اللصوص لا عصر القضاة النزهاء. إنما تبقى المدينة وقطيعها الكبير ضحية الزمن الدامي.

ولأن نظرتها اندلعت، حتى أضحت أكبر من الصوت ومن حدوده، حيث المسافة ضيقة والإمكانات منعدمة، لهذا ضبطتها، وقالت:

- أهناك من رخصة جديدة، ولم أعلم بها، تسمح بذلك؟.

أربكه السؤال فجلس، وظلّت هي ورئيس الجمعية واقفين، يطلان عليه كأرَضَة مختلة رغم أُبّهة ملبسه، وحين حرك رأسه يميناً ويساراً، لم يجد مفراً من الجواب:

ـ الموضوع لا يحتاج إلى رخصة أو غيرها، فلكل شغّال أجره.

المنطق. حياك الله يا منطق عصر الاختلال: في الحقوق، والواجبات، والديموقراطية والفرص المتساوية، والشغل، واللقمة، والحرية والبناء والانتصارات، والتطور، والقيم، والحضارة: ألف رحمة ورحمة عليك يا عصر البعث في الصقع الفاسي.

واحتججت،
ـ هذا صحيح، ولكن هذه المؤسسة ليست مستشفى ولا مصحة، وهؤلاء الطالبات لسن مريضات، وإنما هو فحص عادي من أجل الإعفاء من مادة التربية البدنية، يقوم به القسم الصحي المدرسي.

وحين أحاطت به الإدانة، استرذ وقاحته، وقاحة النهب وامتصاص العروق التي تشكو من فقر الدم، ولم يستحيي حين أجاب مرتبكاً:
ـ إنني طبيب، ولي حق أخذ أتعابي.

فجاء صوتها كمن يصيح:

ـ كان الأولى بك أن تفتح عيادة.

أن تفتح عيادة أو متجراً، أو مكانـاً للسمسرة أو ماخوراً، أو إدارة، فالأمر سيّـان. فالجمـوع الشعبية ممصوصة في أيٍّ منها، ومع ذلك فهي تتابع في الزمن الميت رحلة الجوع والعطش.

ورمت عينيها على كليهما، كان الرئيس تحت دهر من الحزن، حزن المدينة وحزن الآباء، بينما كانت عيون الطبيب مطفأة.

وأضافت، مبددة الصمت الفارغ:

ـ هاته بادرة جديدة، لم نعرفها من قبل، في سلسلة الفوضى والإثراء الغير المشروع.

أخذت يداه ترتعشان، وكانت هي، بنظرتها، تطلب من الأب أن يتخذ موقفاً:

ـ على أي، نحن كآباء، سنبحث الموضوع، لنعرف ما لنا وما علينا.

وكان الخارج في المـدينة خـريفاً. فالأعاصير كانت في الشتاء القديم ولم تعد. لهذا كان حتى تَدَخُّلُهُ مهادِناً.

أما الاقتحام، فقد كان من الآخر، من الذي قد انضم لمن أخرج مدينته وأبراها:

- افعل ما بدا لك، أما أنا فقد تصرفت.

ولأنه الغضب المنفرد، الغضب الثابت غير المتحرك، فقد خرج كصراخ مبحوح في فلاة:

- ولكنني بصفتي المسؤولة الأولى، فإني أمنعك من الآن، من مواصلة عملك هنا.

وخرجت، يتبعها صدى صوتها ونزيف جرحها الجديد: الاتجار داخل الزاوية الصغيرة التي هي مسؤولة عنها في هذا العالم، فلكأن الحصار قد ضاق، فمن فلسطين إلى كل فلسطين، حتى هنا وهم يغتالون، ولم يبق لهم إلاّ عقر الدار.

وفي ساحة الثانوية أحسّت أن التاريخ الشخصي والوطني وتاريخ المدينة والأمة يلزمه من يوقظه: زلزال أو صاعقة عامة، ليسترد معنى الفجر والحروف الهجائية.

وكان ذلك فوق طاقتها. مبدأ فوق المستوى. يقتضي

الضحايا الجماعيين لا الفرديين. غير أن من يسير بجانبها صورة معاكسة. فالهدير في أذنيه ليس سوى صدى، وبذلك لا يحس أن الخطر يهمه.

وحين رفعت السماعة، سألها:

ـ ماذا ستفعلين؟.

أبعدت السماعة قليلاً وظلّت ممسكة بها، تُسكت بتلك الحركة أصواتاً نافرة في الداخل تكاد أن تفلت.. أن تقول له: ما دمت وما دام أمثالك لم يتجرعوا طعم الخسارات الجماعية، بل يسيِّجون محيطهم الصغير ويتقوقعون في الأمان الرخيص، فإنه لا قدرة لي ولا لأمثالي على فعل شيء.. لكن حينما تتكسر كل الجباه على جور الواقع، فحتماً قد نفعل شيئاً. ثم رفعت عينيها نحوه، وقالت كمن يتنهد:

ـ فقط، أُخبر السيد النائب بالموضوع، لنرى ماذا يمكن أن نفعل.

كان صوته في القريب البعيد، محاطاً برسميات

محنطة، ولأنها تكره لغة الرسميين وتعاملهم، فقد كانت بهاته المكالمة، مضطرة فحسب.

واقترحت:

- ولكن لماذا لا نخبر قسم الشرطة بالموضوع؟

وظلَّ على صمته لحظة، ثم ختم:

- سأتصل بك بعد حين.

وحين ظلاَّ على انفراد، لاحظ:

- لماذا إدخال الشرطة في الموضوع! إذا كان الأمر كذلك، فأنا أعتذر، إذ عليّ القيام ببعض الأعمال، ولقد طال مكوثي هنا.

آه يا وحشة الطريق الصعب ويا مذاقه المر، فللآخرين الأعمال الأخرى والأرباح الأخرى والحسابات الأخرى، وهم يرفضون حتى أن يكونوا حصاة صغيرة للتعثر..

ومع ذلك سألته برجاء قاس:

- لو تتأخر بعض اللحظات فحسب، لنرى رده.

وفي تلك اللحظة الفاجعة، حيث الغضب العاجز والأمل الموؤود، كانت فاس في الطرف القصي من العالم تنتحب.. ترفض المصالحة بين ما هو قائم وبين ما يجب.. وكانت هي تتمزق عبر أسلاكها وبؤرها وقوانين الغاب المسنونة فيها. ورن الهاتف:

- عليك بطلب الشرطة السريعة في الرقم (19) لإلقاء القبض عليه، فهو ليس بطبيب، ولكنه لا زال متدرباً، ولا حقَّ له في القيام بما فعل، كما أخبرني بذلك رئيس القسم الصحي بعمالة المدينة.

وتساءلت المدينة بدمعها العصيّ، وسيارة الشرطة تذهب به:

- أهي بادرة خصب جديد.. أهو الحرف الأول في التاريخ الآتي؟.

....

وحين دقَّ الجرس، حيث انصبّت الفصول على الساحة، والخبر ينتشر في الطالبات كالرياح المنتظرة.. كانت سيارة الطبيب المتدرب تقف.. وكان أمام ضمير

الشعب الفاسي وعيون طالباتها يخاطب رئيسة المؤسسة كمن يصفعها:

ـ سأظل أنا طبيب الثانوية، وسوف لن أتعب إلى هنا بعد، بل عليك أن ترسلي الطالبات عندي إلى المستشفى العمومي للحي..

أصوات وصور

من قبل، كان مختصّاً في تذوق المباهج الصغيرة، وكانت التفاصيل البسيطة لليومي تملأ له فراغ المكان وهيولة الزمن، لكنه الآن، أصبح لا يعرف تلك المسرات نفسها برفقة الآخرين، بل يحس بأن بينه وبين ما يطرحه الرفاق في هاته النزهة الأسبوعية في الضاحية هوة عميقة، عمق ما بين ذانيك الجبلين. وتساءل: أليس هذا إرهاصاً بتغيير ما نتيجة العمر، أم لأن الفرح أصبح سلعة نادرة في الزمن العقيم؟.

وتذكر:

ـ ستكون مسؤول الأمن، في محاكمة مجموعة من الأساتذة والطلبة. كانت تلك هي التعليمات التي صدرت

إليه مؤخراً، فأحس أنه مثل ذلك الغواص الغير الكفء، الذي سقط بين موجتين عاتيتين، وبذلك فإنه لا يستطيع أن يتغلب على الشعور بالانقهار أمام ضرورة الخبز والقوانين المجحفة التي لا تخدم الإنسان.

●

وقال المدير، بعد أن كان قد اكتسب جسراً من الوهم ومن اليقين بينه وبين عميد الشرطة:

ـ ولكن لماذا لا تُتخذ نفس تلك الإجراءات التعسفية مع اللصوص الكبار، كتلك التي تتخذ ضد من لهم فكر مغاير؟!.

سؤال ساذج بالتأكيد، ولكنه مع ذلك ألقاه. فلم يجب عميد الشرطة على السؤال مباشرة، ولكنه من نفس اللوعة أخذ يحكي ووجهه يتقلص بغصة مفاجئة:

ـ أتذكَّر ذلك الفصل من المسرحية الهزلية، حينما ألقي القبض على بعض الوزراء والموظفين الكبار بتهمة الاختلاس..

وبعد أن أخذ نَفَساً، تابع ووجهه يتنصل من طابعه:

ـ لقد قدموا كلهم شهادات طبية ملفقة، ومن ثم

التحقوا بمستشفى ابن سينا، حيث كانوا يقضون نهارهم في ألعاب مختلفة، وعند المساء، ينسلون إلى بيوتهم، لقضاء لياليهم في الأسِرّة المخملية.

●

وسأل أحمد أخاه:

- هل اشتريت بعض القطاني للاحتياط كما اتفقنا؟.

فأجاب حسن:

- لم أفعل بعد، فأنا واقع تحت وطأة الخسارات المتعددة، سواء موت الدجاج بالأمراض، والعجول بالجوع، ولا أفكر في لقمة الأولاد بقدر ما أفكر في كيفية رد السلف الذي أخذته من البنك، لذلك فهل لك أن تشتري لي معك شيئاً من ذلك؟

●

نفض عميد الشرطة لفافته في المنفضة، وترك عينيه لحظة على ما سقط منها، ثم قال كمن يعترف، بل كمن يرتاح من ثقل يعذبه:

- لكن عند محاكمة الآخرين، أصحاب الرأي، خصوصاً في المحاكمة التي كان فيها ابن أحد الرموز

الوطنية، كنت أرتعب وأنا أمد يدي لأفتش سلل الأكل قبل السماح للمعتقلين بأخذها، فهل لست سوى أداة حقيرة لتنفيذ عقوق خسيس،في حق أحد رجالات النضال التاريخيين وأحد أبطال الاستقلال الرئيسيين.

زفر زفرةً مشتعلة وتابع، بينما كان المدير يحملق فيه أنْ تابع:

- وفي إحدى الجلسات، وذلك الرمز يحتج على المماحكات العدوانية التي يخضع لها المعتقلون في الاستجوابات التي لا تمس الموضوع، بعد أن هاج الجمهور، رمى بتعليق في شكل خبر:

- أليس عمك يا سيادة القاضي هو من أمسك بسعد ابني، الذي تحاكمه الآن، حين عدت به من المنفى بعد الاستقلال، وهل لست أنا من عينت بعد ذلك، أخاً لك كأحد السفراء سابقاً؟! لهذا فلا تنخدع كثيراً بالمشهد، فقد يتغير إذا صُححت الأدوار كما يجب.

●

قالت النشرة الجوية:

الطقس خلال الأربع والعشرين ساعة الأخيرة في يناير:

بقيت الحالة كما كانت عليه، فدرجات الحرارة لم تعرف أي انخفاض، كما أن الاضطرابات الجوية تحملها الرياح إلى شمال غرب أوروبا، وهي محملة بثلوج وأمطار ،ولهذا سيبقى الطقس على ما كان عليه.

●

وقال التاريخ القريب:

النضال وعياً والأمان بلاهة. وحين تضع لقمتك في فم الأفعى فحتماً ستسممك. وكل أولئك الذين وعوا الأدوار واستقرأوا المستقبل تعفنت بهم الزنازن أو الهجران الموقت، ومن بقي فإنه يحصد الجوع أو الخديعة أو الحساب المنتظر.

●

ظلَّ عميد الشرطة يحرق السجائر كمن ينتقم. غير أن زمناً متخلخل الترابط لا زال كما هو. ولأن المدير يريد أن يشعل بصيصاً أو يزعزع أماناً، فقد أضاف:

- أكنت على معرفة سابقة بوالد سعد؟

أعاد عميد الشرطة وضع ساقيه على بعضهما، وأجاب وهو يرمي يده أيضاً على حافة المكتب:

ـ لقد كان هو من القادة، وكنت أنا من القاعدة، كنت عضواً في إحدى خلايا الحزب، ولهذا كانت توجيهاته تأتينا عن طريق المنشورات السرية، كما أن أخباره، معتقلاً كان أو منفياً كانت تصلنا.

ثم أحنى جذعه قليلاً، وسحق عقب سيجارته بقسوة، وتابع كمن يشكو أو يدين:

ـ هذا نفسه، هو من كان رغم كبر سنه، ورغم ما فعله فيه تعذيب السجون والمنافي، هو من كان يبقى في باب السجن المدني ينتظر، خاضعاً لكل التعسفات المتوقعة. لهذا، ولأنه اسم كبير كالوطن، فقد كان يخيل إليّ أن الوطن هو من يحاكم، بجرم لم يقترفه.

●

رمى المكنسة جانباً، وابتعد عن باب الثانوية وصاح:

ـ لن أكنس بعد حتى يسلموا لي أجرة الشهور التسعة التي في ذمتهم.

حملق المنصوري فيه بهلع:

ـ أما أنا فلا أستطيع.

فردَّ عليه ابراهيم:

- ذلك هو المشكل، أن لا نتفق على شيء.

فاحتج المنصوري:

- وإذا طردوني؟

- لن تخسر شيئاً سوى جوعك الذي هو لك سواء مع ذلك المرتب الهزيل أو بدونه.

وتدخل عبد السلام:

- لماذا لا نجتمع ونطلب من السيد المدير سلفاً، ريثما نتوصل بحوالاتنا.

فصاح ابراهيم بقرف:

- دائماً أنصاف الحلول..

●

وضع الحارس العام ملف المذكرات التي توصل بها اللحظة من المدير عن طريق الناظر، قصد الاطّلاع والتوقيع والتنفيذ، وتنفس:

- بالله عليكم، هل سنأكل هاته المذكرات الوزارية أم

ماذا؟ الدجاج مريض واللحم هزيل، وأثمانهما يلزمك جناحي نسر خرافي للوصول إليها.

فرد عليه مصطفى، وهو الحارس العام الآخر بالثانوية، بعد أن رفع رأسه عن دفاتر امتحانات فصوله، التي كان يكمل المعدل فيها للدورة الأولى من السنة الدراسية.

- هذا الإنهاك القاتل في العمل، حتى إذا خرجنا إلى السوق من أجل لقمة تعطي للجسد طاقة للتغلب على الإنهاك، فُجعنا بالأسعار. وقبل أن يرد عليه الحارس العام الأول، تدخل المعيد أحمد، الذي كان قد حمل مجموعة من دفاتر الامتحانات لفصول أخرى، ووضعها على المكتب أمام الحارس العام مصطفى:

- بالأمس ذهبت إلى السوق المركزي للخضر حيث تكون عادة الكمية كثيرة والأثمان معتدلة، فصُدمت بقلة الخضر المعروضة فيه، وبأثمانها الخيالية.

آنذاك تدخل الناظر:

ـ أما أنا فما لا أفهمه، هو كثرة السدود واستفحال الجوع..

●

أما عميد الشرطة فلا زال يشكو:

ـ أقول لك..

ولم يتم، حيث غير من وضع رجليه على بعضهما، وأخذ يوزع نظرته بين النافذة ووجه المدير المهتم. وتابع:

ـ حيناً كنت أملك صوتاً لأعتذر إليه همساً، وأحياناً كنت أسقط في الصمت العاجز، كأن القدر كان يحمل ضدي ثأراً خاصاً، نتيجة لذلك، كنت أنقهر لدرجة أنني كدت أحياناً أن آتي فعلاً مجنوناً، كأن أقف أثناء الجلسة وأصيح معرّضاً صدري لكل الأحكام التي قد تصدر على هاته الرموز الوطنية، أو أن أفرغ في رأسي طلقات الرحمة من مسدسي الخاص. ولكن..

●

دقَّ جرس الاستراحة، فهرع الأستاذ علي يبحث عن الأستاذ محمد، وحين وجده قرب قاعة الأساتذة، أمسك بمعصمه وسارا نحو الساحة:

- قل لي، أتراك ستسافر إلى القرية في عطلة الاسبوع

حرّك رأسه راداً على تحية الأستاذ جعفر قبل أن يجيب:

- ليس بالتأكيد، لماذا؟

فشرح له:

- لقد ذهبت بالأمس إلى سوق القمح بالجملة، فوجدتهم قد أغلقوه، وتركوا الباعة عند الباب يبيعون بالتقسيط فحسب. لذلك فهل لي أن أطلب منك أن تأخذ لي معك من سوق القرية مكيالين من القمح.

توقف محمد بتوقف علي، ثم أجابه:

- من أين للقرية بأي شيء لتعطيه للمدينة، لقد جاء أحد أبناء عمومتي منذ أسبوع في زيارة، وأخبرني بالجوع القاهر الذي تتجرعه القرية في يأس.

•

.... أما العم إدريس، فقد كان يفتح دكانه ووجهه يسكنه كدر غير مكتوم، وفي دوامة الحزن الغير المفارق، سمع جاره يبادره:

ـ صباح الخير يا معلم إدريس.

فاستدار نحوه وصوته قد احتوته نبرة قاتمة:

ـ أي خير يا أخي.. لكن مع ذلك، أنعم الله صباحاتك

ابتسم السيد مبارك، فهو المعروف دائماً بأنه فرح السوق وقاهر همومه، وعلق:

ـ أشكرك يا معلم إدريس على كل هاته الأنعام الخارجة. من عبوسك الصباحي.

أنزل المعلم إدريس إحدى قففه على جانب طوار الدكان وغص حلقه:

ـ أي أنعام يا أخي، فحتى أنعام الرب قد سرقت، وما بقي منها احتكرها تجار السوق السوداء للمناسبة القاتمة.

مع ذلك حاول السيد مبارك أن يجر المعلم إدريس خارج الساحة التي يقيم بها، أن يبعده قليلاً عن واقع يشملهم جميعاً، لعله يسرق وإياه ابتساماً صغيراً:

ـ ومع ذلك يا معلم إدريس:

فضرب المعلم إدريس كفاً بكف، ثم مسح إحدى يديه بطرف جبهته قبل أن يجيب:

ـ بالأمس، ذهبت إلى السوق المركزي لأتسوق، فما وجدت شيئاً، فيد العفاريت الكبار قد ذهبت بكل شيء، ومع ذلك تقول ما تقول يا سي مبارك!.

وحين ظل مبارك يحملق فيه، تابع المعلم إدريس:

ـ عليّ وعليك وعلى كل أمثالنا، أن يتهيأوا للأثمان المرتفعة التي سيفرضونها علينا، فهل باستطاعتك أو باستطاعتي ذلك؟.

حينذاك تجهم وجه مبارك وتساءل بادانة:

ـ لكن أين المراقبة؟.

●

أطلّت السكرتيرة وأبلغت المدير بلطفٍ:

ـ منظفو المؤسسة يطلبون مقابلتك.

نظر أحدهما: المدير وعميد الشرطة، كل في وجه الآخر، ثم أجاب المدير:

ـ ليتفضلوا.

صمت عميد الشرطة، وانكبت نظرته هو الآخر نحو الباب.

وبعد أن دخلوا، تكلم ابراهيم:

ـ السيد المدير، جئناك في طلب، ذلك أنك تعرف عدم توصلنا بحوالاتنا منذ تسعة أشهر، وأحوالنا المادية كما لا يخفاك.. والمعيشة كما في علم سيادتك.. أضف إلى ذلك ديون الدكاني الذي توقف عن.. لهذا جئناك نرجو التفضل بالحديث مع المقتصد من أجل سلف..

كان الكدر العام والخاص يتجمع في لحظة، وكانت العمارات والنافورة والحفلات والاستعراضات وبذخ الواجهات لا يستطيع أن يكون ستاراً لهـذا الجوع المستفحل. وكانت الحلول الصغيرة تزيد في تمديد المسافة لتحقيق الحلول الأساسية، وكان الشباب القادم، شباب هذا الوطن معلقاً بين المهادنة والمحاكمات أو القيامة، لهذا أجاب:

ـ السلف ممنوع كما تعلمون.

التقت أعينهما، العميد والمدير، وكان فهم جارح يجمع بينهما: بين السلطة والقاعدة، إذ حينما تصبح السلطة تنفصل عن مركزها لمكابدة وجع القاعدة، فإن البصيص يلوح.

أحنى رأسه وكان يتألم، لكن المدير كان يدرك ألمه ويواظب عليه وينشره، ولأنه مدرك للثمن حتى ولو كان ضده، حاول أن يعيده:

- وكيف انتهت المحاكمة؟.

ضرب جانب المكتب بقبضته وصاح:

- لا محاكمة ولا غيرها، أليس هؤلاء، المنظفون الذين دخلوا الآن، قد أقاموا لنا، أنت وأنا، محاكمة اللحظة، وهل لست أنت من تدفعهم إلى مزيد من الحقد فالانفجار، وبذلك تكون لكل منكم خطته، لكن أنا؟..

بقي كل منهما يحملق في الآخر لحظة، ثم أعاد قبضته إلى جبهته بعنف، بينما امتلأت عيـونه بِبَلَلٍ عَصِيٍّ، وأضاف:

- بربك قل لي، ألسنا محاكَمين من زمان، فمن وقت

ما كنتُ ممثلاً للسلطة في تلك المحاكمة، محاكمة الرموز وأنا أحمل قرار الحكم، ذلك الذي أصدرته ضدي جلسات المحاكمات لكل رمز..

أحنى المدير رأسه برضى، لقد نجح اللغم في تفجير الاستقرار الرخي فيهم وفيه، ولذلك لم يبق أمامه سوى أن يقولب هذا الغضب الجديد ويوجـه، ومن ثم حـاول أن يشعل له لفافة قبل أن يطرح الأشياء معه بشكل موضوعي، غير أن العميد قام منفعلاً، وبغتة انسحب.

. . . .

خبر جد قصير:

- قالت الأخبار إن عميد الشرطة، السيد المتوكل، قد انتحر في ظروف جد غامضة..

فتنغص المدير: وهو يعلق: إنْ كان غضب عميد الشرطة قد انتحر، فإن غضب المنظفين وصغار التجار والموظفين وجمهور الجائعين لم ينتحر...

الوجع المراهق

كم أضجر بين هذه الجدران والأوسمة . لكن هل الزمن يستطيع أن يمر من هنا ؟ الموت بالتأكيد يمر وصوت المدينة قد خنقوه أو آشتروه والأمر قد صدر عليك بالفرح .

كانت القاعة في حالة شبع ، فمطرها لا يعرف جفاف بعض المواسيم . وكانت الوجوه تتقن أن تبتسمٍ : أهو رياء أو تآمر أم اتفاق على اغتيال المدينة ؟ وطنت في الفراغ ذبابـة يتيمة ، إن المبيـدات تفعل فعلهـا في الحشرات والجماهير إلا أنت أيها السجين دون أفق قريب .

- تفضل . . .

ومد يده كالآخرين . تناول كأساً وشرب شاياً ، كانت الحقيقة الداخلية والخارجية في المنفى . وكان الشاي يملك لونه ومذاقه ، فهو شاي الأسياد ، لذلك فشروطه بالكمال والتمام .

ـ أهلاً أستاذ علي .

طبع على محياه شبح بسمة ورد التحية . كان الكولونيل منذر ببذلته العسكرية في مواجهته . وانهالت أيام زمان : المدرسة والحي واللقاءات العابرة أو المجدَّدة. وشعر بأنه الآن، وسط هذا الفولكلور المشوه قد يستطيع الآن أن يقول كلمة تحرره من الحفل والمناسبة .

وضع المنذر كأسه على حافة طاولة الحلويات وهو يسأله :

ـ مدة طويلة لم نَرَك ، كيف أحوالك أيها الدب القطبي ؟

انقبضت أصابع علي على الكأس إنفعالاً وهو يغرس نظرته في عيني المنذر :

ـ كما قد تخمن ، ترحال في ترحال في ترحال .

وضع يده على كتفه تحبباً وهو يهاجمه :

ـ في الداخل أو الخارج ؟! .

تحرك فسقطت يد المنذر وسارا قليلاً :

ـ لا تريد إلا أن تفتحها معركة ! .

فابتسم أيضاً وهو يرد :

ـ وهل خلقت أنت لأي سلم إيها المشاغب المحترف؟ .

ازدادت بسمة علي وهو يتحرش أيضاً :

ـ كما تعلم ، حتى نحرر الواقع منكم ومن أشباهكم ونعيد ترتيبه .

أخذ بيده وسارا وهو يهمس له :

ـ أيها اللعين ، أتريدنا أن . . تعال نطل من الشرفة .

وحينما كانا يتحركان وسط الحضور ، كان علي يضربه على كتفه ويهاجمه : إنك كالعهد ، تخاف أن يتغير مصيرك .

ـ سامحك الرب أيها العدواني العزيز .

ثم تركه نحو إحدى الموائد المرصوفة مشروبات وحلويات . أخذ كعكاً والتحق بعلي من جديد ، وقدم له واحدة ، فاعتذر : « لا شهية لي ». وكانت ٱلْبُسُطُ الوثيرة تدغدغ خطو علي ، فأرجله لم تتعود على فاصل خارجي بينها وبين الأرض ، صلابتها ولفحاتها وتنفسها الخفي ، ولذلك كان كمن يُدَغْدَغُ عند كل خطوة ، وكان ذلك يزيد في حنقه ، لذلك كان يسرع في الخطو لعله يبلغ الشرفة حيث البلاط صلب . ولذلك مازحه المنذر :

ـ أأنت العسكري أم أنا ؟!

ولأن علياً طلقة مهيأة ، فقد قال :

ـ حينما تغيب الحقيقة ، فالمسميات توزع اعتباطاً فقط .

التحق به وهو يمضغ ما تبقى من كعكته وأمسك به ، وهو يجره صوب الشباك الحديدي ، حيث الفرق الموسيقية والفولكلورية تقدم مقاطع ورقصات شعبية .

كانت الشرفة تمتد على طول القاعة ، ولذلك أَمَّهَا عدد من المدعوين. وكانت هي والأهازيج تستقبلهم وتسافر بهم سريعاً نحو الفرح المصنوع . وكان على الوعي المتغلغل في البعض أن يحتاط ، أن يتحصن بالقلاع المسورة ، وأن يسد كل الثغور ضد السمسرة وبيع الكرامة بالمزاد .

وهناك في البعيد ، مكتب يتيم ، غرس عليٌّ تنبهه فيه ، كأنه الشاهد المحايد الذي يسجل، وكان الشباك الحديدي يطل على الرقص والخضرة والغناء، وكانت الطائرة الوحيدة تأتي وتذهب، فتستبد بالأهازيج لحظة ثم تتركها، وكان المنذر في حوار خاطف مع شخص وسيم ، ونادى على علي وحين اقترب أسرع :

ـ دعني أُعرِّفك على أحد أعز الأصدقاء أيضاً، إننا نثق في بعض كما أنت وأنا ، الضابط جاسم محمد .

تلكأ علي قبل أن يضع يده في يد جاسم الممدودة ، والمنذر يضيف :

ـ أما هذا ، فهو علي مصطفى : العبوة الناسفة باستمرار.

ضحك جاسم وضحك المنذر وابتسم علي، ثم علق جاسم :

ـ ولكن دار لقمان على حالها .

فنهره المنذر وهو يحتد: أتريد أن تشعلها يا جاسم ؟!

بينما كان علي يعلق مازحاً : كيف ؟! هل مثلكم من يقول ذلك ؟!

فصاح به المنذر في غضب مفتعل: أتنكر أيها الوغد بطولاتنا، وما حرب أكتوبر والصحراء ببعيدة .

انغرس الساقي وسطهم وهو يعرض مشروباً ، أخذ جاسم كأساً واقترب من الشباك أكثر وأطل، ثم هتف بالمنذر :

ـ تعال أيها العسكري الخشن وانظر .

كان جاسم واضحاً مع نفسه ، بل مع مستواه ، يرى أن لكل لحظة تذوقها الخاص، وأنه لا يريد أن يشحن

غضبه من الغاضب الجديد، وكان يدرك أن الغضب موزع بنسب مختلفة، حتى بين هؤلاء كطبقة، وأن عليه الآن أن يرتاح من غضبه ولو لحظة ، لهذا استدار من جديد باحثاً عن المنذر ورفيقه ، فوجدهما منكبين في الشرفة الغربية، فتحرك نحوهما وانضم إلى إطلالتهما ، ولكن علياً كان يتراجع وهو يعلق :

ـ لم أعد أتحمل هذه الأهازيج الصادحة بأوامر.

كان عيناً وكان صوتاً. والعين رسول للصوت ، والصوت لم يستطع أن يسالم ، وكان المنذر يريد أن يمسك به :

ـ تعال أيها المحتفل بالحزن وحده . .

كان هديراً وكان أجيجاً: الوضع والوقع . وكانوا قد أساءوا حينما اختاروه عيناً وملاحظاً. لأنه مبتلى بالقيود إلى الحد الذي لا يعرف أن يسالمها، مؤقتاً، أو ليحطمها، لهذا فاض:

ـ لكن أين الجماهير أين نشيد الشوارع الحقيقية ؟! .

وكان يعرف أن الجماهير غائبة هناك وغائبة هنا ، وأن السؤال عنها هو اثباتها ، واثباتها هو القضية .

حملق جاسم في علي والمنذر وهز كتفيه :

ـ أتـراه ، صـديقـك المجنـون هـذا ، يحن إلى المقصلة ؟!.

لم يجبه ، ولكنه مد يده وأمسك علياً تحت إبطه وسار به نحو الطاولة البعيدة، كان شيء ما يوحد بينهما ، يربط تاريخهما منذ البدء ، وكان للحي والفقر والصبا ينابيع ومصبات متقاربة ، لهذا ولو أنه كان يتمنى أن يجد فيه يوماً مّا الشخص المتماسك ، ذلك الذي لا ينقهر بسهولة أمام المذلات ، ليكون أهلاً لما يطمح إليه ، غير أن الفترة التاريخية لم تلد بعد القائد الحقيقي : من يبتسم ولحمه يتفتت ، لأن عليه أن يؤدي ببسمته ، بمنظوره ، بتحليله ، بمشروعه الفكري بإقدامه أو تراجعه : دفعاً واكتساحاً، لهذا كان يفكر وَهُمَا يقتربان من مقعدين في الزاوية ، في أن يحدثه بجدية .

كانت الجلسة البعيدة تترك لهم فسحة أن يلاحظا ، ورغم أنهم على ارتفاع حوالى خمسة أمتار، فقد كانت رؤوس أشجـار النخيـل تـواجههم ، تشهد خلوتهم

المحذورة ، بينما المصابيح الكهربائية تمنحهم ضوءاً عابثاً في يوم مشمس .

أخذ المنذر جلسته على يسار علي ، وكان بصره يشتغل الآن بإتقان، فهو يعرف أن ثلثي الحاضرين من المخبرين ، يعرف بعضهم ، أما أكثرهم ، فيستطيع بالخبرة الناضجة أن يضبطهم . ولأنه لم يكن يثق بحنكة علي ، بل فحسب ، باندفاعه الصادق، لذلك أوكل لنفسه كل المهمة وهو يقول :

ـ أنت ترى يا علي ، أن هيئتك السياسية قد صعَّدت المواجهة وهي لا تملك القدرة على التحكم في الشارع بفئاته المختلفة ، من أجل رد الفعل الضروري، الشيء الذي جعلها تدفع ثمناً لا ضرورة له، إذن فالفعل السياسي الذي هو من اختصاصها، لم تَبْنِ له قاعدياً، لذلك فالمجال الآن للطرف الآخر، ليقول كما يشاء، ولتصبح اختياراته في مأمن من أية مواجهة شعبية حقيقية، ولذلك فالرابح الآن هو من أعطيتموه الربح ببلاهة، ودفعتم أنتم الثمن دون بديل .

فصاح علي :

وأنتم ؟

ـ نحن. . وصمت. قليلاً، ثم أضاف: نحن كما تعلم، لم نكن ولن نكون أبداً البديل الشرعي للشعب، وأمامك العالم الثالث، كمثال.

ـ وما العمل ؟؟

قال علي ذلك بلهجة يأس، بينما كان المنذر يضرب على يده بخفة، لينبهه إلى قادم آتٍ في الممر البعيد، فصمت، بينما غيَّر المنذر: يحدثه عن الأسرة: الأولاد، فإدريس قد كبر، وهو هاته السنة بالمدرسة العسكرية، لكن جلال متأخر شيئاً ما في دراسته، وكما ترى فأنا مثقل بمسؤوليات كثيرة، أنت خفيف منها لأنك إلى الآن ترفض مؤسسة الزواج .

كان القادم قد عبر، وكانت أذناه قد التقطتا الحديث العائلي، لهذا عاد المنذر للجواب :

ـ هذا ما يجب أن نوجهه نحن إليكم ، فأنتم تحركتم من فوق، وتركتم التنظيم القاعدي على الهامش، لذلك

كان من السهولة أن يضرب رأسكم، لأنه بلا جسد. ولو كنتم قد خلقتم الجسد أولاً، نظمتموه بالأحرى وتركتم له حرية أن يختار رأسه، وأن يختار حركته، لكان خلقاً كاملاً، لا يمكن العبث أو المساس به أو قطعه، ولكنا آنذاك نحن، أو البعض منا وراءه : حراسة وعونا وسنداً.

كان علي كمن يفيق، وتلك مشكلته، فغضبه أكبر من وعيه، ولأنه من مدرسة ينقصها التحليل والوعي والتنظيم القاعدي، لهذا فهو يشب على الفطرة: السخط موجود لكنه غير متبرمج، غير قادر على التحريك، لذلك ضرب كفه بجبهته، بانفعاله المرتفع دائماً وهو يسأل :

- أتريد أن تجعلهم هم أيضاً في القفص ؟.

وبكل ذلك الهدوء المضبوط، رد المنذر عليه :

- ذلك حقك وحقنا وحق كل من رهن حركتهم لتغيير المسيرة العامة.

وبعد لأي، بعد هنيهات من الزمن قصيرة أو طويلة، وبعد تفكير مستعجل، حينما كان الصحو في غير إبانه، لأنه صحو مفتعل فحسب، تساءل علي بقهرٍ:

ـ والآن ؟؟

فرمى المنذر بصره في كل اتجاه وأجاب بيقين :

ـ ليس من حقي أو حقك أن نقرر وحدنا ، يجب أن تقرر الجموع : هاته الجموع التي يجب أن تكون أولاً حاضرة في الهيئات السياسية : كلمةً واختياراً وممارسةً، قبل المطالبة بحضورها عند الأنظمة ، فهي وحدها من عليها أن تقرر .

توضيح

النزيف الحزين

سر أمـامـاً أمـامـاً، والا حينـما تتنمر خيانة اللون والجلد والاسم والهوية، فاغرس قدميك في أس الوصول الى التُّركَب، حتى لا يجرفك تيار الانحسار الى الخلف. . او تجد نفسك من جديـد في الـدرجـة الاولى من الصفـر، خصـوصـا وأنـك ممن راهنتَ ومن الأول بأدوات تعبـيرك، تلك وهاته، على حاضر يمضي واخر احسن سيأتي . . . .

أكيـد أنهـا معـركـة خاصـة وعـامـة، مع الذات والعالم والمـرحلة. . . مع القنـاعـات والمبـاديء والاختيارات. . . مع الطمـوحـات وأدوات الصـراع، ولكنها حتمية، يفرضها منطق الـواقـع، وعـالم الاحبـاطات على كل المستويات: الاجتماعية الاقتصادية السياسية الثقافية: عربيا ودوليا. . . لكن وعلى أية حال، يشكـل ذلـك الـوقـوف، بكـل ذلك الانغراس في رحم الارض الصلد. موقفـا ضد عواصف الجـزر، التي تأخـذ الان جميع اشكال المتاجرة والسمسرة والغدر والنكوص. . .

الفجـر الـرديء. . . او الكتـابة خارج النص. . . كان هذا هو العنـوان الاول ثم الثـاني لهذه المجمـوعة. . . فانطلاقا من التـوضيـح السـريع السابق، انبثقت هذه التسمية وكذلك من اول الرحلة. . . يوم اخترتُ الكلمة تبريراً للوجود وأداة من ادوات التغيـير نحـو الاجمـل: الأكثـر وعيـا وشبعا وعدالة وفهما

وصحة وتحركا. . . واستمرت الرحلة صدقا واخلاصا، حتى زمن السفالة هذا. . . زمن الغدر والخيانات والولغ في دم الاهل والاحبة: بيروت (فلسطين = الامة. . العالم) بيروت الشهادة وبيروت العلامة، في التاريخ الحديث عربيا ودوليا: فهل كان هذا العمر. . العمر الخاص وعمر المرحلة، وهو يتوقع فجراً لم يأت عنفاً!. . .

ليست نغمة تشاؤم بقدر ما هي حالة واقع، جعل كل البنى والهياكل والنظريات والمفاهيم والأدوات تهتز، وجعل كل الفرضيات والحتميات تختلط، دون ان يقتل فينا بذرة الامل، برغم شراسة إجهازه داخليا وخارجيا على مخاض المرحلة. . هذا الامل سواء في كل نص قصصي، او في هذا الرصد لا للآني ولكن للآتي، في رحم الواقع وفي مخاضه العسير والسوي. . كل ذلك جعلني أغير العنوان ليكون مطابقا للفترة ولحمولتها، وجعلني أرجيء الإصدار في وقفة مراجعة وتأمل وتفكير ومحاسبة للخاص والعام، للادوات والانتماء، للمرحلة وفروضها، للهوية وما يهددها: انه البحث عن مشروع. . يتعدى نطاق الفرد الى مسؤولية الجموع: لصياغته نظريا ولخلق ادوات التعامل معه عمليا: أمل ولاشك؟ ليكن، وباصرار. . .

انها الان، وعلى المستوى الشخصي، خصوصا وشراسة الاحداث وغدرها يهددان التليد والوليد، ارتأيت تغيير أداة الحوار. . قد يكون غضبا وقد يكون وعيا نازفا وقد يكون

انتماء حتى النسغ . . فيكون الصمت المنطوق . . به ابتدأت وبه قد أقف للمراجعة ولو في عز العطاء . . . صمت ضاج مُحتج فوّار ناريٌّ عربيد . . في اللحظة والتاريخ والهوية واللغة والذات الجماعية والفعل المنتظر . . بحثا عن مشروع جديد للفكر والتواصل والحركة . . في الواقع . . والحلم . . والعالم . . واللغة . . (الكلام ـ القول ـ اللفظ) والسر واليقين : اليوم غداً وكل زمن أو تعبير أو فعل سيأتي . .

يقول الشاعر عبد الغني سكيرج :

ربما ضاقت الصدور عن القو
ل، فأضحى السكوت أبلغ نطقا

خناثة بنونة

فهرس

صدر عن منشورات «عيون المقالات»

- مبادىء في علم الأدلة : تأليف رولان بارت، ترجمة محمد البكري
- نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب : الدكتور أمجد الطرابلسي
- سوسيولوجيا الثقافة : الطاهر لبيب
- دروس في جغرافية المناخ -1- عناصر المناخ : أحمد بلاوي
- العرب والنموذج الأمريكي : د. فؤاد زكرياء
- عصر البنيوية : إديث كيرزويل، ترجمة : جابر عصفور
- تلك الرائحة (قصص) : صنع الله ابراهيم
- رباعيات نساء فاس (العروبيات) : محمد الفاسي
- المكتبة السينمائية - 1 - التصوير : لوي دي جانيتي
- المكتبة السينمائية - 2 - الاخراج : لوي دي جانيتي
- المكتبة السينمائية - 3 - الحركة : لوي دي جانيتي
- الجذور الفلسفية للبنائية : د. فؤاد زكرياء
- ينابيع الثقافة ودورها في الصراع الاجتماعي : بوعلي ياسين
- الماركسية والنقد الأدبي : تيري إيجلتون، ترجمة جابر عصفور
- عبقرية الصديق (مقالات تحليلية) : مجموعة من المؤلفين
- رجال في الشمس (دراسات تحليلية) : مجموعة من المؤلفين
- الحركة السلفية : مجموعة من المؤلفين
- مدخل الى السيميوطيقا 1 بإشراف سيزا قاسم.
- مدخل الى السيميوطيقا 2 بإشراف سيزا قاسم.
- انتفاضة الشاوية : أحمد ريادي
- الأسطورة والرواية : ميشيل زيرافا ترجمة : صبحي حديدي
- في التنظير والممارسة. دراسات في الرواية المغربية : لحميداني حميد
- الأسطورة والمعنى كلود ليفي ستراوس ترجمة : صبحي حديدي
- القصيدة المغربية المعاصرة بنية الشهادة والاستشهاد : عبد الله راجع
- دروس الجامعة : جماعة من الأساتذة
- جرب حظك مع سمك القرش - مسرحية : يوسف فاضل
- حركية الرأسمالية : ف. بروديل - ترجمة محمد البكري
- التراث بين السلطان والتاريخ، عزيز العظمة
- المعرفة والجنس من الحداثة إلى التراث، ع. الدبالي.

للكاتبة: **خناثة بنونة**

- **ليسقط الصمت**: قصص، دار الكتاب 1967
- **النار والاختيار**: قصص ورواية، مطبعة الرسالة، الرباط. جائزة المغرب الثانية 71
- **الصوت والصورة**: قصص، دار النشر المغربية 1975
- **العاصفة**: مطبعة الرسالة 1979 الرباط.
- **الغد والغضب**: رواية - دار النشر المغربية، 1981

سِرْ أماماً أماماً، وإلا حينما تتنمر خيانة اللون والجلد والاسم والهوية، فاغرس قدميك في أس الوصول إلى الرُكَب، حتى لا يجرفك تيار الانحسار إلى الخلف... أو تجد نفسك من جديد في الدرجة الأولى من الصفر، خصوصا وأنك ممن راهنتَ ومن الأول بأدوات تعبيرك، تلك وهاتك، على حاضر يمضي وآخر أحسن سيأتي...

صمت ضاج محتجّ فوّار ناريٌّ عربيد.. في اللحظة والتاريخ والهوية واللغة والذات الجماعية والفعل المنتظر.. بحثاً عن مشروع جديد للفكر والتواصل والحركة.. في الواقع.. والحلم.. والعالم.. واللغة.. (الكلام - القول - اللفظ) والسر واليقين: اليوم غداً وكل زمن أو تعبير أو فعل سيأتي..

منشورات: عيون المقالات: ص. ب. 6714، سيدي عثمان، الدار

الايداع القانوني: 264/ 1987